بسم الله الرحمن الرحيم

جامعـــة آل البيت
كلية الدراسات الفقهية والقانونيـــة
قسم أصول الدين

الآيات الـــواردة فـــي هـــلاك الأمـــم

" دراسة موضوعية "

The Quranic Verses Pertaining
To The Destruction of Nations
"A Thematic Study"

إعداد الطالب

عمر سلامة سليمان البرصان

إشراف الدكتور

عبـــد الرحيم أحمـــد الزقـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعــة آل البيت
كلية الدراسات الفقهية والقانونيــة
قسم أصول الدين

الآيات الـــواردة فـــي هـــلاك الأمـــم

" دراسة موضوعية "

The Quranic Verses Pertaining To The Destruction of Nations

إعداد الطالب

عمر سلامة سليمان البرصان

إشراف الدكتور

عبـــد الرحيم أحمـــد الزقـــة

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيـــــع
الدكتور عبد الرحيم أحمد الزقة (مشرفاً ورئيساً)	....
الدكتور حسيب السامرائي	....
الدكتور يوسف أحمد علي	....
الدكتورأحمد نوفل (الجامعة الأردنية)	....

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **القرآن الكريم وعلومه** في كلية **الدراسات الفقهية والقانونية** في جامعة آل البيت .

نوقشت وأوصي بإجازتها / بتاريخ : ..١../...٥.../٢٠٠٢........

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة هود:الآية ١١٧]

الإهداء

إلى ربي - سبحانه - نجوى

إلى الرسول - ﷺ - قربى

إلى المسلمين ذكرى.

الشكر والتقدير

يطيب لي في هذا المقام أن اتقدم بجزيل الشكر، ووافر العرفان إلى فضيلة الدكتور عبد الرحيم أحمد الزقة، لتكرمه بالإشراف على هذه الرسالة حيث كان معلماً ناصحاً، وأباً مرشداً، فجزاه الله خيراً.

كما أتقدم بالشكر الجزيل والاحترام الوافي إلى أعضاء لجنة المناقشة الممثلة بـ :

فضيلة الدكتور: حسيب السامرائي

فضيلة الدكتور: يوسف أحمد علي

فضيلة الدكتور: أحمد نوفل

وذلك لتفضلهم بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة، وإبداء الملاحظات حولها فجزاهم الله خيراً.

فهرس المحتويات

الملخص

الآيات الواردة في هلاك الأمم

"دراسة موضوعية"

The Quranic Verses Peirtaning to the Destruction of Nations

إعداد الطالب: عمر سلامة البرصان

تبحث هذه الدراسة في الآيات الواردة في هلاك الأمم والوقوف على الأسباب والعوامل المؤدية لذلك، وهي دراسة تنتمي لدائرة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وهي دائرة واسعة جدا تشمل الكثير من الموضوعات القرآنية.

وقد أورد القرآن الكريم أنباء عن هلاك أمم كثيرة سابقة بأنواع من العذاب، وكان الإخبار عن بعض تلك الأمم الهالكة مفصلا، وعن بعضها موجزا وذلك بما يخدم العبرة التي يريد القرآن الكريم توضيحها للناس، لذا نجده يفصل على سبيل المثال في خبر هلاك قوم نوح عليه السلام في مواضع عديدة في غير سورة، في حين إنه لم يفصل في هلاك قوم تبع وأصحاب الرس وإنما أخبر فقط أنهم في عداد الأمم الهالكة لذا قرن القرآن ذكرهم بذكر أمم هالكة أخرى.

ونجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الأمم الهالكة، لأن ذلك ينطوي على سنة ربانية، وسنن الله ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، تسري على كل الأمم، فأية أمة تحققت فيها أسباب الهلاك لابد وأن تهلك، فالله سبحانه لا يحابي أمة على أخرى.

وأسباب الهلاك وعوامله التي عرضها القرآن الكريم متعددة، إلا أن أظهرها يتمثل في:

- **الجهل** الذي يُعدُّ الأساس الأول للشرك بالله وعامة الذنوب والمعاصي، لذا كان للقرآن عناية خاصة به لما له من دور أساسي في ضياع الأمم وتشتتها ثم دمارها وهلاكها، فما من أمة عاشت في ظلال الجهل إلاّ فقدت بصيرتها التي تنير لها الحياة.
- **الترف** وهو مرض اجتماعي مقوضُ للحضارات ومهلك للأمم، يتم فيه مجاوزة الحدود في التمتع بملذات الدنيا التي هي في حقيقتها زينة للحياة الدنيا كما أخبر الله تعالى فالمترفون هم الذين يجرون الأمم لمهاوي الهلاك.
- **الظلم** فقد كان سبباً في أخذ الله أمماً كثيرة به، فالظلم إن ساد في إحدى الأمم تعست وعاشت في شقاء وضيق وفقدت أمنها ورقيّها، وانهارت حضارتها مهما كانت دعائمها قوية، ودائرة الظلم واسعة تشمل أصنافاً كثيرة من المعاصي والذنوب، وقد كرهه الله كرهاً شديداً لذلك حرمه.
- **ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، وهذا الترك يكون سبباً للهلاك فقد أهلك الله بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وينشأ هذا الترك كظاهرة فردية، وهو في هذه المرحلة تبقى آثاره محصورة في الأفراد، لكن خطره يزيد ويعظم عندما يتحول إلى ظاهرة جماعية تتسم بها الأمة كلها.
- **ترك الجهاد في سبيل الله**، فتركه يؤدي إلى خنوع الأمة وذلها وهوانها لأنها تكون بذلك قد فقدت روحها، فلابد وأن تنزلق قدمها في مزالق الفتن والهزائم والهلاك، وكان هذا سبباً في تحذير القرآن من ترك الجهاد والترهيب من ذلك في مواضع كثيرة.

وما زال القرآن الكريم في دعوة مستمرة للأمم إلى الحذر من أسباب الهلاك والحرص على تحقيق أسباب القوة والتمكين، ويعتبر الإيمان بالله هو الأساس الأول في قوة الأمم وتمكين الله لها، وهو المرجع الذي ينبغي أن يكون الأول الذي ترجع إليه الأمم في كل عمل تمارسه في حياتها، ومتى انفصل العمل عن مرجعه الأساسي فقد قيمته واعتباره، وهذا ما يوضح ربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح، فلابد من صياغة الأمة صياغة تتوافق مع إيمانها بالله سبحانه.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على منقذ البشرية من مهاوي الردى إلى معالي الهدى، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين إلى يوم الدين وبعد.

فهذا القرآن العظيم معجزة النبي ﷺ التي تحدى بها العالمين باقٍ يمدّنا بأنوار الهدى ويبصرنا بالحق.

وقد نبّه الله سبحانه من خلاله على سننه في الحياة، وأن الإنسان إذا اتبع هذه السنن عاش راضياً مرضياً، وإذا تنكب هذه السنن فإنه يكون قد حكم على نفسه بالشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ١٥٣].

ولهذا كانت عناية القرآن الكريم ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين، وأعتنى كذلك بكشف الباطل وتوضيحه حتى تستبين سبيل المجرمين، وذلك لأن سبيل المجرمين وسفور الكفر أمر ضروري ولازم لوضوح الإيمان والخير والصلاح، وهو هدف من أهداف الشريعة، ولأن أي شبهة أو لبس في موقف هؤلاء الضالين سوف يرتد إلى شبهة في موقف المؤمنين وطريقهم، ولأن من يجهل سُبل الضلال والانحراف وحيل الشيطان ومكائده سرعان ما يقع في شراكه ويكون من حزبه، ومن أجل ذلك كله استفاض القرآن في حديثه عن الكافرين والمشركين والمنحرفين وعن أخلاقهم وصفاتهم وأسباب هلاكهم.

ومن الجدير ذكره أنه ما من أمة من الأمم لم تستجب لتعاليم نبيها وحادت عن طريق الله إلاّ وأنزلت نفسها إلى الهاوية، وأوجبت على نفسها الهلاك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [سورة طه:الآية ١٢٤] .

ولم يكن هذا الهلاك نتيجة صدفة، إنما هو أمر مقصود متمثل في أمور وضحتها الآيات القرآنية الكريمة بحيث شكّلت أسباباً وعوامل في هلاك الأمم، وكانت تلك الأسباب محوراً للدراسة في هذه الرسالة، وقد ضمت الفصول التالية:

الفصل الأول: صحة الأمم وهلاكها.

الفصل الثاني: الجهل وأثره في هلاك الأمم.

الفصل الثالث: الترف وأثره في هلاك الأمم.

الفصل الرابع: الظلم وأثره في هلاك الأمم.

الفصل الخامس: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في هلاك الأمم.

الفصل السادس: ترك الجهاد وأثره في هلاك الأمم.

وقد اعتمدت في دراستي لأسباب هلاك الأمم المنهجين الاستقرائي والاستنباطي، فجمعت الآيات القرآنية الواردة في ذلك، وصنفتها حسب موضوعاتها، ثم قمت بدراستها مستعيناً بالأحاديث النبوية التي تتعلق بالموضوع محاولاً الربط بينها وبين الآيات ما أمكن. وقد حرصت أثناء دراستي تلك أن أنسب الفضل لأهله، فنسبت كل قولٍ إلى قائله.

وأتمنى من الله تعالى أن أكون في عملي هذا قد سددت فإن لم يكن فأرجو أن أكون قد قاربت، ومنه تعالى أرجو غفران الزلاتِ والغفلاتِ، والحمد له أهلُ الفضل والمنة.

الدراسات السابقة

من خلال البحث والاطلاع في حدود ما مكن لي على جهد السابقين في موضوع الآيات القرآنية الواردة في هلاك الأمم لم أجد من درس هذا الموضوع دراسة تفسيرية موضوعية ولكني وجدت ما يلي:

١- "الأمة في دلالتها العربية والقرآنية" للدكتور أحمد حسن فرحات، وقد قام بدراسة مصطلح الأمة ومعانيها من ناحية الاشتقاق اللغوي ومعانيها، ولم يتعرض للآيات الواردة في هلاك الأمم.

٢- "الأمة بين عوامل التهدم وأسباب الانحطاط" لهادي مرسي، وقد قام ببحث أسباب الانحطاط والهلاك من الناحية التاريخية.

٣- "مفهوم الأمة في الدين والتاريخ دراسة في مدلول الأمة في التراث العربي الإسلامي" للدكتور ناصيف نصار، وقد تحدث الباحث فيه عن مفهوم الأمة في القرآن في صفحات قليلة، ثم تكلم عن مفهوم الأمة عند ابن خلدون والشهرستاني، وكذلك مفهوم الأمة في فلسفة الفارابي، ولم يتعرض لأسباب هلاك الأمم.

٤- رسالة "الأمة المسلمة في القرآن الكريم"، مقدمة من الطالب محمد جميل في جامعة آل البيت، وقد ركز بحثه حول أمرين أساسيين هما: مقومات الأمة المسلمة ثم خصائص الأمة المسلمة، ولم يبحث حول أمر هلاك الأمم في القرآن الكريم.

الفصل الأول

صحة الأمم وهلاكها

المبحث الأول

مفهوم الأمة والهلاك في القرآن الكريم

المبحث الأول: مفهوم الأمة والهلاك في القرآن الكريم

أولاً: مفهوم الأمة لغة واصطلاحاً:

لقد ذكرت كلمة الأمة في المعاجم اللغوية بمعان عدة لابد من الوقوف عندها جميعاً من أجل الوصول إلى بيان واضح حول مفهوم الأمة في المصطلح، وهذه المعاني اللغوية هي: –

أولاً: القصد:

" الأمّ – بالفتح – القصد، أمَّه يؤمه أمّاً إذا قصده".

فلم أنكل ولم أجبن ولكن يممت بها أبا صخر بن عمرو[(١)]

ثانياً: الطريقة والدين:

"الإمَّة والأمة – بالكسر والضم – الشرعة والدين، يقال فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحله، قال الشاعر:

وهل يستوي ذو أمةٍ وكفور؟"[(٢)].

ثالثاً: النعيم والملك والعيش الرغيد:

"والإمة – بالكسر – نضارة العيش، قال الأعشى:

ولقد جررت إلى الغنى ذا فاقة وأصاب غزوك أمة فأزالها

أي نعمَةٍ"[(٣)].

---

(١) محمد بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج١٢، ص٢٢.
وانظر * محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ج٨، ص١٨٩.
* محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م، ج٤، ص٧٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٧٥، مصدر سابق.
وانظر * الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٨٩، مصدر سابق.
* الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص٧٦، مصدر سابق.

(٣) الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٨٩، مصدر سابق.

رابعاً: الإمامة:

"الإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين، وأممت القوم في الصلاة إمامة، وأتم به أي اقتدى به، والإمام المثال".

قال النابغة:

أبـوه قبلـه وأبـو أبيـه   بنـوا مجـد الحيـاة علـى إمـام[١]

خامساً: الرجل الجامع للخير:

"الأمة – بالضم – الرجل الجامع للخير"[٢].

وقيل "الأمة: الرجل الذي لا نظير له، ومنه قوله عز وجل: "إن إبراهيم كان أمَه" يعني إماماً. وكل من كان على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان، فهو أمة وحده، وكان إبراهيم خليل الرحمن على نبينا وعليه السلام أمَه"[٣].

سادساً: القامة والوجه:

"أمة الرجل: وجهه وقامته، قال الأعشى:

وإن معاويـة الأكرميـن   بيـض الوجـوه طـوال الإمـم

أي طوال القامات"[٤].

وانظر * ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٤، مصدر سابق.
* الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص٧٦، مصدر سابق.

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٤، مصدر سابق.
وانظر * الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٨٩، مصدر سابق.

(٢) الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٨٩، مصدر سابق.
وانظر * ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٧، مصدر سابق.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٨، مصدر سابق.
وانظر * الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص٢٨، مصدر سابق.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٨، مصدر سابق.
وانظر * الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص١٨٩، مصدر سابق.

سابعاً: الوالدة:

"الأمة أحد الأبوين وتجمع في العقلاء على أمهات وفي غيرهم على أمّات، فالأمهات للناس والأمّات للبهائم"(١).

"وكل ما كان أصلاً لوجود الشيء أو إصلاحه أو تربيته أو مبدئه أمّ، قال تعالى: ﴿ وعنده أم الكتاب﴾، أي اللوح المحفوظ لأن العلم كله منسوب إليه"(٢).

ثامناً: الجماعة:

"الأمة: الجماعة، وأمة الله خلقه، وكل جيل من الناس هم أمة على حدة، وكل جنس من الحيوان غير بني آدم أمّه على حده؛ والأمة الجيل والجنس من كل حيّ"(٣).

تاسعاً: الحين:

"الأمة: الحين، قال الفرّاء في قوله عز وجل: ﴿وادكرّ بعد أمة﴾، قال بعد حين من الدهر"(٤).

عاشراً: "الأمة الطاعة، والأمة العالم"(٥).

وكل هذه المعاني مردها في اللغة معنى أصلي وهو القصد، قال ابن منظور: "واصل هذا الباب كله من القصد، يقال: أممت عليه إذا قصدته، فمعنى الأمة في الدين أن مقصدهم مقصد واحد، ومعنى الأمة في النعمة إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه، ومعنى الأمة

---

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص٧٦، مصدر سابق.
وانظر * الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٩٠، مصدر سابق.
(٢) أحمد بن يوسف السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، تحقيق محمد التنوجي، ط١، عالم الكتب، ١٩٩٣م، ج١،ص١٣٦.
(٣) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ج١، ص١٣٦، مصدر سابق.
(٤) الزبيدي، تاج العروس، ج٨، ص١٨٩، مصدر سابق.
وانظر * ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٧، مصدر سابق.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٨، مصدر سابق.

الرجل المنفرد الذي لا نظير له لأن قصده منفرد عن سائر الناس، ومعنى الأمة القامة سائر مقصد الجسد..."(١).

ويقول الدكتور أحمد حسن فرحات "يقول أبو البقاء: الأمة - بالضم - في الأصل: المقصود كالعمدة والعدّة في كونهما معموداً ومُعدّاً، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق"(٢).

ويظهر من خلال المعاجم اللغوية أن الأصل الاشتقاقي للأمة هو القصد، وكل المعاني الأخرى يمكن ردها إلى هذا الأصل.

الأمة اصطلاحاً:

وردت كلمة "أمة" ومشتقاتها أربعاً وستين مرّة في القرآن الكريم، "وهي من المصطلحات التي ولدت بميلاد الرسالة الإسلامية مثل مصطلح "الصلاة" و"الزكاة" و"الإيمان" و"الإسلام" و"الكفر" و"النفاق" وهكذا"(٣).

وقد دلَّ هذا اللفظ على معان عدة في السياق القرآني أساسها أن الأمة تعني "الجماعة" وهناك معان أخرى لكنها تُرَدُ لهذا المعنى الأساسي والأصلي.

قال الراغب: "الأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً وجمعها أمم"(٤).

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [سورة الأنعام:الآية ٣٨] .

---

(١)ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٧ مصدر سابق.
(٢) أحمد حسن فرحات، الأمة ودلالتها العربية والقرآنية، ط١، دار عمار، الأردن، ١٩٨٣م، ص١٦.
(٣) ماجد عرسان الكيلاني، الأمة المسلمة، ١٩٩٢م، ص١٥.
(٤) الحسين الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر، بيروت، ص١٩.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [سورة هود:الآية ١١٨] .

وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٠٤] .

والسياق القرآني هو الذي يحدد معنى لفظ الأمة في كل آية، وقد وردت بمعان عده هي(١):

"**أولاً: الجماعة من البشر**، ويحدد السياق القرآني إطار هذه الجماعة بدقة ويظهر هذا كما يلي:

- الجماعة التي أرسل إليها رسول من عند الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة يونس:الآية ٤٧] .

- الجماعة التي تقف موقفاً معيناً من الدين.

قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ١٦٨] .

- الجماعة التي تدين بدين واحد.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٤٨] .

- الجماعة التي آمنت برسالة سيدنا محمدﷺ :

---

(١) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز، تحقيق محمد النجار، مجلس إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٣٨٣هـ، ج٢، ص٧٩.
وانظر * السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ج١، ص١٣٣، مصدر سابق.
* محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٩م، ج٩، ص١٠.
* أحمد فرحات، الأمة في دلالات العربية والقرآنية، ص٢٣-٢٨، مرجع سابق.

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١١٠] .

- جماعة العلماء:

قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ١٨١] .

- جماعة كثيرة من الناس أكثر من غيرها:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة النحل:الآية ٩٢] .

ثانيا: الجنس من كل حي:

- قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ٣٨] .

ثالثا: الدين والملة:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآية ٣٣] .

رابعا: السلوك العملي في الحياة والتقاليد:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآية ٢٣] .

خامساً: الرجل الجامع للخير:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [سورة النحل:الآية ١٢٠] .

سادساً: الزمن أو الحين :

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة يوسف:الآية ٤٥] .

وقد أشار باختصار إلى العديد من هذه المعاني الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز[١]، والقرطبي في تفسيره[٢].

ومن المعاصرين، عرّف سيد قطب مصطلح الأمة فقال: "الأمة بالمصطلح الإسلامي هي الجماعة التي تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على آصرتها، وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة، فهذه الأمة الثابتة على الحق، العاملة به في كل حين، هي الحارسة لأمانة الله في الأرض، الشاهدة بعهده على الناس، التي تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده في كل جيل"[٣].

إن العقيدة الإسلامية هي العنصر الأساسي الذي تتشكل نواة الأمة من خلاله وليس التاريخ أو العرق أو اللغة، رغم أن الإسلام لا يلغي دور كل من هذه العناصر في تشكيل الأمم،

---

(١) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز، ج٢، ٧٩، مصدر سابق.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص١٠، مصدر سابق.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٩، دار الشروق، ١٩٨٠م، ج٩، ص١٤٠٢.

بدليل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الحجرات:الآية ١٣] .

"إن الإسلام يعترف بانقسام الناس إلى شعوب وقبائل وأن حكمة ذلك هي التعارف بين الناس غير أن الإسلام مع اعترافه بهذا الواقع، فهو يسعى إلى إيجاد انتماء عقدي فكري يكون مجالاً للالتقاء والتعاون بين الشعوب، فالإسلام لا يعمل على إلغاء هذا الواقع، وإنما يبعده أن يكون مقياساً للتفاضل بين الناس ومجالاً للتفاخر والتناصر ويقيم بدلاً منه قيم الدين مقياساً للتفاضل على أساس العمل الصالح الذي يصدر عن الناس"(١).

إن هذا الانتماء العقدي هو الذي يوسع حدود الأمة المسلمة عبر الأزمان المتعاقبة. والأمكنة المختلفه فكل جماعة تنتمي لهذه العقيده تدخل إطار الأمة المسلمة التي باستمرار وجودها تستمر الرسالة الاسلاميه على وجه الأرض .

ثانياً: مفهوم الهلاك:

الهلاك لغة من "هَلَك يهلك هُلكاً، وهَلَكاً وهلاكاً مات، وهو لازم: هلك يهلك هلاكاً، ومتعد أهلكته وهلكته واستهلكته"(٢).

الهلاك اصطلاحاً:

وقد ورد الهلاك في القرآن الكريم على أربعة أوجه هي(٣):

---

(١) أحمد فرحات، الامه في دلالتها العربيه والقرانيه، ص٥١-٥٢، مرجع سابق.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٥٠٣، مصدر سابق.
وانظر * الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز، ج٥، ص٢٣٨، مصدر سابق.
(٣) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ج٤، ص٢٩٥، مصدر سابق.
وانظر * الحسين بن محمد الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص٤٧٧.
* الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القران،ص٥٤٢،مصدر سابق.

" **أولاً** : العذاب، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ..﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة مريم:الآية ٧٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة الكهف:الآية ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ [سورة الحجر:الآية ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة القصص:الآية ٥٩] .

ثانيا: الفساد. قال تعالى ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢٠٥] ، وقال تعالى ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ ﴾ [سورة البلد:الآية ٦] .

ثالثا: الموت. قال تعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ﴾ [سورة النساء:الآية ١٧٦] ، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ ﴾ [سورة غافر:الآية ٣٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [سورة الجاثية:الآية ٢٤] .

رابعا: افتقاد الشيء عند المرء مع وجوده عند غيره، قال تعالى: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الحاقة:الآية ٢٩] .

وهذه المعاني الأربعة تعتبر معاني أصيلة للفظ الهلاك، أو هناك ألفاظ أخرى يمكن أن تعتبر من معاني لفظ الهلاك كالأخذ والانتقام لكن إذا كان هذا الأخذ أو الانتقام عاما وشاملا.

المبحث الثاني

صحة الأمم

المبحث الثاني: صحة الأمم

شاء الله أن يجعل الإنسان خليفة له في الأرض، وتعتبر هذه الخلافة أشرف وأسمى منزلة في الكون، فقد كلف الله الإنسان بإعمار الكون الذي سخر ما فيه للقيام بهذا التكليف على خير وجه.

والخلافة من وجه تكريم وتفضيل من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [سورة الأنعام:الآية١٦٥] ومن وجه آخر تعتبر الخلافة مسؤولية عظيمة وتكليفا جليلا، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورةالأحزاب:الآية٧٢] . " والخلافة ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي ذلك كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض اللائق بخليقة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان"(١).

وإذا حقق الإنسان تلك الخلافة وعمر الكون بدين الله تعالى عندئذ يكون قد حقق الهدف من وجوده والغاية من خلقه المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورةالذاريات:الآية٥٦] .

"إنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جزاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، والله خلقهم ليأمرهم بالعبادة لا لاحتياجه إليهم"(٢).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٥٢٩، مرجع سابق.

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي محمد السلامة، ط١، دار طيبة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧م، ج٧، ص٤٢٥.

والعبادة تشريف وتكليف لبني آدم، لذا فهي واجبة عليهم وحق لخالقهم، وهذا ما يفسر نداء كل رسول قومه بها، قال تعالى: قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورةالأنبياء:الآية٢٥] .

يقول الطبري: "وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحي اليه إنه لا معبود في السماوات والأرض، تصلح العبادة له سواي فاعبدون، فأخلصوا لي العبادة، وأفردوا لي الالوهه"(١).

إن العبادة هدف يستغرق نشاط الأمم كلها، فدائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان وجعل غايته في الحياة ومهمته في الأرض دائرة رحبة واسعة تشمل شؤون الحياة كلها، وهذا مفهوم يجب التركيز عليه في حياة أمتنا حتى لا تجعله مفهوما ضيقا مضمحلا مع مرور الزمن، لأنه إن أصبح كذلك يصبح عامل بناء في حياة الأمة بدل أن يكون عاملا في بناء حضارة قوية يشع نورها في الحياة الإنسانية.

وهذا ما يوضح قول ابن تيمية عندما بين مفهوم العبادة لدى الأمة المؤمنة حيث قال: "هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد على الكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك"(٢).

فالعبادة مفهومها واسع يجب الاعتناء به والإشارة إلى أهميته وقد حرص النبي على تأكيده في سنته التي تعتبر مبينة لما ورد في القرآن الكريم، على هذا المفهوم الذي وقف ابن تيمية لبيانه من خلال القرآن ثم السنة.

---

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ج٩، ص١٦.

(٢) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، العبودية، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٢هـ، ص٣٨.

"عن معاذ بن جبل، قال: كنت رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل، فقال: "يا معاذ" قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة، ثم قال: "يا معاذ بن جبل" قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: "هل تدري ما حق الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا"(١).

فلابد من أدراك هذا التشريف من رب شكور كريم، وقد ذكر الرازي كيف شرف الله بني آدم بالعبادة فقال: "العبودية مقام عال وشريف ويدل على ذلك آيات:

الأولى: قوله تعالى في آخر سورة الحجر ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة الحجر:الآيات ٩٧-٩٩] . فأمر محمدا عليه الصلاة والسلام بالمواظبة على العبادة إلى أن يأتيه الموت، ومعناه لا يجوز الإخلال بالعبادة في شيء من الأوقات، وذلك يدل على غاية جلالة أمر العبادة.

الآية الثانية في شرف العبودية، قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [سورة الإسراء:الآية ١] . ولولا أن العبودية أشرف المقامات لما وصفه الله بهذه الصفة في أعلى مقامات المعراج.

الآية الثالثة: في شرف العبودية، إن عيسى أول ما نطق قال: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة مريم:الآية ٣٠] ، فلما كان أول كلام عيسى ذكر العبودية كانت عاقبته الرفعة كما قال تعالى: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ٥٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة. برقم (٣٠)، ص ٣٧.

الآية الرابعة: قوله تعـــالى لموســـى عليـــه الســـلام: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ [سورة طه:الآية ١٤] . أمره بالتوحيد بالعبودية، لأن التوحيد أصل والعبودية فـــرع، والتوحيد شجرة والعبودية ثمره، ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر"[١].

والخالق سبحانه سخر هذا الكون تسخيرا لعباده ليساعدهم على تحقيق الخلافة على أكمل وجـــه، قـــال تعـــالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ﴾ [سورة الجاثية:الآية ١٣] ، وهي لا تتحقق إلا إذا رسخ الإنسان قدمه في الكون وعرفه معرفة العـــالم المتبصر، قال تعالى مكرما بني آدم: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [سورة العلق:الآيات ١-٥] . فالله سبحانه خلق الإنسان واهلـــه للخلافة فمنحه العقـــل وعلمه حتى يعبده حق العبادة.

ويعتبر العقل هو الأساس الذي يفصل به الإنسان بين الخير والشر وبين الحق والبـــاطل وبين الهدى والضلال، وبه يكشف أسرار مخلوقات الله المسخرة بشكل يخدم هدفـــه الأساســـي "الخلافة".

قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ ﴾ [سورة الرحمن:الآيات ١-٧]، فلابد من سبر أغوار هذا الكون بظـــاهره وباطنه ومائه وسمائه، وهذا الأمر يعد مقوما أساسيا لبناء الأمم والحضارات الزاهرة، والأمـم لا يمكن أن تصوغ حضارات متينة ورصينة إلا من خلال الفكر والتأمل، والعلم المتواصل عـــبر

---

(١) محمد بن عمر الفخر الرازي، التفسير الكبير، ط٢، دار إحياء التراث العربـــي، بـــيروت، ١٩٩٧م، ج١، ص٢١٤.

الحقب الزمنية المتتابعة، وهذا ما يفسر تركيز السياق القرآني على الدعوة للعلم وتحقيقه بمختلف الوسائل الشرعيه المتاحة.

وما يزال القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى استثمار الكون وتسخير كل ما فيه ليتسنى للناس حياة كريمة سهلة وميسرة.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الحج:الآية ٦٥] .

وما التقدم التقني الذي وصلت إليه الأمم في هذا العصر إلا نتيجة لاستثمار خيرات الكون، مما يدفع الإنسان للهداية أكثر وأكثر، ومتابعة السير لتحقيق الخلافه لكن ليس وفق هواها دون رقيب عليها أو حسيب، إنما وفق ما أراد الله سبحانه، فلابد من الائتمار بأمره والانتهاء بنهيه، وإلا وقعت الأمة في القلق والخوف والحيرة القاتلة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة طه:الآية ١٢٣] ، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى فتأمن الأمة على نفسها في حال طاعتها من الضلال والشقاء، أما إن عصت فقد أبرأت نفسها من ذلك العهد، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة طه:الآيات ١٢٤-١٢٦] . وهذا يمثل مقتضى عدل الخالق سبحانه "فهو جعل لمن اتبع هداه وتمسك

بدينه العيش الهنيء الذي لا هم فيه ولا غم، وجعل لمن أعرض عن دينه التعب والنصب، وهو في الآخرة أشد تعبا وأعظم ضيقا وأكثر ألما"(١).

قال الطبري: "وصف الله معيشتهم بالضنك لأن الحرام وإن اتسع فهو ضنك"(٢).

والتبصر بهذا الهدف ومحاولة تحقيقه وفق ما أمر الله تعالى به، وبقدر الطاقة المتاحة هو الضامن الوحيد لصحة الأمة وحفظها من الأمراض الفتاكة التي تصيب الأمم فتودي بها في مهاوي الردى، لذا لابد من السير المتواصل عبر الأزمان المتعاقبة لعمارة الأرض مع الحذر الشديد من الاقتراب من دوائر الأمراض التي تصيب الأمم كالجهل والترف والظلم والتي تشكل معول هدم في أعمدتها، وبالتالي تؤدي إلى هلاكها واستبدالها بأمم أخرى.

والقرآن الكريم وضح الرصيد الذي ينبغي لكل أمة أن تحتفظ به حتى تضمن لها وجودا بين الأمم وجودها بين الأمم، ولبقاء حضارتها مضيئة حياة الإنسانية منيرة لهم سبل الهدى.

إن صحة الأمم وقوتها تكمن في شروط عدة وموجبات كثيرة، ولوازم تضمن استمراريتها، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٥٦ ﴾ [سورة النور:الآيتان ٥٥-٥٦].

ويعتبر الإيمان هو الأساس الأول في نجاة الأمم وبقائها متمتعة بمنعة عالية، وهذه الصحة إنما هي تفضل وتكرم من الله عز وجل على الأمم المؤمنة بحيث تستطيع أن تبني

---

(١) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ج٦، ص١٣٤.

(٢) الطبري، جامع البيان،ج٨، ص٤٧،مصدر سابق.

حضارة إنسانية متألقة، ولا قيمة وجودية للأمم دون هذا المقوم الأساسي، لذا اهتم القرآن اهتماما بالغا به، فهو المرجع الذي ترجع إليه الأمم في كل عمل تمارسه في حياتها، أما إن كان عملها مجردا من الإيمان فانه يفقد أهميته واعتباره، ويكون آنذاك كالرماد الذي ذرته الريح الشديدة العاصفة، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:الآية ١٨] . "مشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ولا الانتفاع به أصلا، يجسمه هذا المشهد العاصف المتحرك، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددا.

هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار، فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله مفككة كالهباء والرماد، لا قوام لها ولا نظام"(١).

والعمل عندما يرتبط بالإيمان لابد أن يكون صالحا لأن له مرجعا ربانيا يرجع إليه فيسدد خطاه كلما مال عن الدرب، ويكون بذلك عملا إيمانيا يزيد من صحة الأمة ويبعدها عن تفشي الأمراض في بنائها. قال تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:الآية ١٠٥] . "فهذه الدنيا ليست كالآخرة، فلا يرثها إلا من كان قادرا على إصلاحها والانتفاع بخيراتها، والاستفادة مما على ظهرها وباطنها، فمن كان أحصف رأيا وأحكم فكرا ملكها وتسلط عليها وجنى ثمارها واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير"(٢).

والسياق القرآني كثيرا ما يربط بين الإيمان والعمل الصالح لأن "الإيمان هو أصل الحياة الكبير الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته صائرا إلى ذبول وجفاف، وإلا فهي ثمرة شيطانية ليس لها امتداد أو دوام.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٠٩٤، مرجع سابق.
(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٦، ص٢٠٤، مرجع سابق.

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة، وإلا فهي خصلة لا تمسك بشيء ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات، وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق وتتعاون وتنسلك في طريق واحد، وفي معركة واحدة، لها دافع معلوم وهدف مرسوم.

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل ولا يشد إلى هذا المحور ولا ينبع عن هذا المنهج"(١).

"والإيمان لا ينفك عن العمل الصالح لأن العمل نتيجة له وثمرة من ثماره، وهو مظهره الذي يظهر به للناس، ولذلك قرن الله الإيمان بالعمل الصالح"(٢).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الكهف:الآية ٣٠] .

"فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثا وغاية، فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير لا عارضا مزعزعا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل"(٣).

لذا يعتبر الإيمان هو العامل الأول في صحة الأمم وقوتها ونجاتها، وهو الذي يقيها شر الأمراض التي تهلكها، ويشكل سياجا يحيط بحضارتها مانعا رياح الهلاك أن تهب عليها، بل يزرع الايمان الأنفة والكبرياء والعزة ويقتل اليأس والقنوط ويستبدلهما بالطمأنينة والأمن والسكينة والعيش الرغيد. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٩٦] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القطب، ج٦، ص٣٩٦٦، مرجع سابق.
(٢) علي الطنطاوي، تعريف عام بدين الإسلام، ط٣، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٥م، ص٩٩.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٩٣، مرجع سابق.

وفي ظلال المرجعية الإيمانية لأي نشاط تقوم به الأمة يجب أن تحرص على صياغة الأخلاق صياغة متلائمة ومتوافقة مع إيمانها بالله سبحانه، أما إن جعلت من الهوى والشهوات أساسا لمنظومة أخلاق الأمة فهي واردة مورد الهلاك لا محالة.

فالأخلاق الفاضلة منظومة فيها روابط تربط الفرد مع غيره، وتربطه بأمته التي يعيش فيها، وبالتالي يعتبر فساد النظام الأخلاقي للفرد سببا في فساد الأخلاق في الأمة كلها وتصدعها وإذا انصدع خلق الأمة تعرضت للضياع ثم الهلاك.

إن الأخلاق القويمة هي التي تعطي للأمم الصحة والعافية والمنعة، وتكون بذلك قوة دافعة للضغوط التي تعيشها الأمم عبر العصور المتعاقبة فتجنبها بذلك مسالك الهلاك.

والأمة صحيحة النفس سليمة البنيان هي التي تحرص على سلامة أخلاقها حتى تحافظ على حضور لها بين الأمم مهما هبت عليها رياح الضعف، فلا تنزوي بل تسعى أن تكون فاعلة تسير على طريق القوة والصحة لأنها تدرك مدى أهمية القوة، فالقوة سبب في زيادة الخيرات وتناميها في جميع نواحي الحياة، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ [سورة الكهف:الآية ٩٥] .

والقوة تمثل بيئة ضرورية للأمم حتى تنمو حضاريا، لذا لابد من الحرص على بناء قوة للأمة سواء أكانت معنوية أم مادية، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٦٠] .

أما إن فصلت الأمم القوة عن المرجع الأساسي وهو الإيمان بالله سبحانه تلاشت قيمتها وأصبحت مظاهر مرض الأمم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [سورة فصلت:الآية

١٥] ، فالقوة المستندة إلى الإيمان هي التي تدافع عن وجود الأمة خصوصا عند الاصطدام بالأمم الأخرى وحضارتها.

فالقران اذا يوجب بناء قوة للأمة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا سبقتها بيئة أخلاقيـــة إيمانية صالحة لمثل ذلك الإعداد، وهذا ما يفسر حالة الصحة والمنعة التي عاشتها الأمة المسلمة في العصور السالفة، فقد كانت نتاجا لبيئة إيمانية غشيها العمل الصالح والأخلاق القويمة.

لقد عاشت أمتنا المسلمة منظومة أخلاقية رائعة، فقوي ساعدها وعظم جاهـــها، وعــز إسلامها فنشر لواءها على مساحات واسعة من أمصار الدنيا وأقطارها وقد شوكة الأخلاق السيئة فأهلكها.

المبحـــث الثالـــث

هـلاك الأمـــم

المبحث الثالث : هلاك الأمم:

أورد القرآن الكريم أنباء كثيرة عن هلاك الأمم السابقة، فقد سرد لنا أخبار أمم أهلكها الله تعالى بأنواع كثيرة من العذاب الشديد حتى تأخذ أمتنا العبرة من مصير تلك الأمم المؤلم، فالعبرة مقصد أساسي من مقاصد تلك القصص، وتفسير مهم لتربية الأمة المسلمة، لأن حياتها غير كافية لاستقاء العبر الكثيرة من خلال الأحداث الخاصة بها، فلابد من العودة للتاريخ السابق في ذلك.

والقرآن الكريم في حديثه عن الأمم الهالكة ذكر أنباء مفصلة عن بعض تلك الأمم بما يخدم الهدف الأساسي وهو الاتعاظ والاعتبار، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة يوسف:الآية ١١١] .

كما ذكر أنباء أقل تفصيلا عن هلاك أمم أخرى، وكان ذلك أيضا بما يخدم ويحقق الاعتبار من ذلك بمعرفة العوامل التي أوجبت عليها الهلاك، فللقرآن الكريم منهجيته الخاصة في تفصيل أخبار الأمم الهالكة بما يحقق العبرة من خلال الوقوف على علة الهلاك الذي أصاب تلك الأمم.

وكان قوم سيدنا نوح –عليه السلام– من أوائل الأمم التي أهلكها الله سبحانه وتعالى بسبب كفرهم وضلالهم وعبادتهم الأصنام والطواغيت، وقد دعاهم سيدنا نوح –عليه السلام– دهرا طويلا ولم ييأس منهم ولم يلحقه الضجر والملل. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [سورة العنكبوت:الآية ١٤] . كل هذا الزمن الطويل في دعوتهم لم يسفر عن توحيدهم الله وإيمانهم به، لذلك أهلكهم الله بما يستحقون، وكان عذابهم بالغرق، قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ

عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة القمر:الآيات ١٠-١٥] . "إنها حركة كونية غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة، تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة "ففتحنا" فيحس القارئ يد الجبار تفتح "أبواب السماء" بهذا اللفظ، وبهذا الجمع "بماء منهمر" غزير متوال وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها "وفجرنا الأرض عيونا" وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها وقد استحالت عيونا. والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض ﴿على أمر قد قدر﴾ التقيا على أمر مقدر، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر"(١).

وأخبرنا القرآن الكريم عن هلاك قوم سيدنا هود عليه السلام "عاد"، وكانوا جفاة أقوياء أشداء، دعاهم هود عليه السلام لتوحيد الله وعبادته، وحذرهم من الكفر والركون للشيطان الذي جعلهم يتبعون الهوى فأذلهم وأغواهم فعبدوا الأصنام، عاتين عن توحيد خالقهم ومستكبرين عن عبادته. قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٦٥]. لكن عادا أرست ثوابت الكفر في نفسها متعالية مستكبرة بذلك فاستحقت الهلاك. قال تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الذاريات:الآيتان ٤١-٤٢] . وهذا وصف للريح يثير الخوف والرعب في القلوب، وتفزع له الأنفس وهي ريح عقيم "لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر وهي ريح الهلاك"(٢).

وقد أورد القرآن الكريم هلاك قوم سيدنا صالح عليه السلام "ثمود" التي من الله عليها بالعيش الرغيد والمهارة في العمران ولكنها طغت واستكبرت عن توحيد خالقها، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص،ج٦،٣٤٣٠، مرجع سابق.

(٢) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ج٤، ص٤٠٦.

سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٧٤] .

وقوم سيدنا صالح عليه السلام "عمروا أعمارا طويلة حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله إليهم سيدنا صالحا عليه السلام فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم"(١). قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٧٣] .

أنكرت ثمود نعم الله تعالى، وعتت عن أمر ربها فعقروا الناقة وخانوا عهدهم لسيدنا صالح عليه السلام، فلم يصدقه قومه بل اشتدوا في تكذيبه فاستحقوا الهلاك.

قال تعالى: ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الذاريات:الآيتان ٤٣-٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٧٨] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة القمر:الآية ٣١] . وهذه الآية بالذات تظهر عظم الهلاك الذي أصاب ثمود فكانت كهشيم المحتظر، قال الزمخشري: "والهشيم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر "والمحتظر" الذي يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم"(٢).

سلمنا الله مما أدى بثمود إلى مهاوي الهلاك.

---

(١) الزمخشري، الكشاف،ج٢، ص١١٣.
(٢)الزمخشري، الكشاف،ج٤، ص٤٣٨.

كما أخبرنا القرآن الكريم عن هلاك قوم سيدنا لوط عليه السلام، لارتكابهم الفواحش العظيمة والتي اشتهروا بها بين الناس. قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٨٠] . فكان سيدنا لوط عليه السلام ينهاهم عن ذلك، قال ابن كثير: "يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور"(١).

وبسبب هذا الانحراف العظيم في فطرتهم والتي كانوا يجاهرون به الدنيا كلها أهلكهم الله أشد الهلاك، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة هود:الآيتان ٨٢-٨٣] .

ولم يكتف بإهلاكهم بقلب عاليهم سافلهم وما تبع ذلك من موت محقق لهم، بل أمطر عليهم حجارة من سجيل: "أي طين متحجر لرجمهم على لواطهم"(٢).

وعندما نتلو تلك الآيات الكريمة ترجف قلوبنا بين الضلوع، وتقشعر جلودنا ونأسى على هؤلاء، ولكن سرعان ما تتبدد تلك المشاعر عندما نتفكر بعظيم ما ارتكبوا من موجبات أوجبت عليهم ذاك الهلاك، سرعان ما ندرك عظم عدل الله سبحانه، والذي يلوح من دعاء سيدنا نوح وشعيب عليهما السلام: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة نوح:الآيتان ٢٦-٢٧] ، وقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٩٣] .

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٤٥، مصدر سابق.
(٢) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، ج٤، ص٤٩٣.

كما أهلك الله تعالى قوم سيدنا شعيب عليه السلام "مدين" حيث دعاهم ليوحدوا الله عز وجل ويعبدوه لأنه هو الجدير بالعبادة. قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٨٥] .

ولما أصروا واستكبروا على كفرهم أهلكهم الله سبحانه وتعالى، وكانت قد انتشرت فيهم عادة الخسف في الكيل والميزان واشتهروا بذلك بين الأمم، لذا اجتهد سيدنا شعيب عليه السلام في نهيهم عن ذلك. قال تعالى: ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٨٥] .

وأنكروا على سيدنا شعيب -عليه السلام- دعوته التي صبر وثبت لها واستكبروا على كل ما دعاهم إليه من الخير فحق عليهم الهلاك الصادر عن عدل الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء:الآية ١٨٩] .

قال أبو السعود: "سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليها فأخذ بأنفسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا"(١).

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [سورة هود:الآيتان ٩٤-٩٥] .

---

(١) محمد بن محمد أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ج٥، ص٥٨.

أهلكهم الله سبحانه وكأنهم "لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين"(١). ثم انظر كيف عدل السياق عن الإضمار إلى الإظهار اثناء تشبيه هلاك مدين بهلاك ثمود وذلك "ليكون أدل على طغيانهم الذي أداهم إلى هذه المرتبة، وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعني ثمود، وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة"(٢).

ونلاحظ في السياق القرآني اجتماع أكثر من صنف من أصناف العذاب على أمة واحدة كالآيات السابقة الواردة في هلاك قوم سيدنا شعيب عليه السلام، فقد ورد العذاب بالصيحة وبيوم الظلة.

أيضا كما أهلك الله سبحانه فرعون وقومه، فقد استعبدوا بني إسرائيل فقتلوا رجالهم، واستحيوا نساءهم، وقد وردت مقاطع قرآنية واسعة سجلت طغيان فرعون وقومه ثم مصرعهم جميعا.

دعاهم سيدنا موسى عليه السلام وأيده الله بمعجزات عديدة، فاتهموه بالسحر وعذابوه وضيقوا عليه وعلى المؤمنين الحصار فاستعان بالله وصبر وثبت في دعوته إلا أن فرعون وقومه هم أيضا ثبتوا على باطلهم فأضلوا أنفسهم ورفضوا الهدى مستكبرين بما ملكوا من قوة مادية عاتية فاستحقوا الهلاك، وكان هلاكهم بالغرق. قال تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء:الآيات ٦٥-٦٧] .

ومن الأمم التي أهلكها الله تعالى وورد ذكرها في سياق الأمم الهالكة دون تفصيل أصحاب الرس، وقوم تبع، وقد ورد ذكر كل من هذين القومين مرتين في القرآن الكريم، وقد ورد ذكر هلاكهم ضمن أمم أخرى هلكت في سياق آية واحدة، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٤٠١، مصدر سابق.
(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٣، ص٣٤٧، مرجع سابق.

قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة ق:الآيات ١٢-١٤] .

أما الآية الأخرى التي ورد فيها بيان هلاك أصحاب الرس قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الفرقان:الآيتان ٣٨-٣٩] . واختلف المفسرون في تحديد أصحاب الرس فذكروا أقوالا عدة أشهرها ما يلي: -

"١- أصحاب الرس كانوا قوما من عبدة الأصنام، أصحاب آبار ومواش فبعث الله إليهم سيدنا شعيبا -عليه السلام- فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه، فبنيانهم حول الرس، وهو البئر المطوية.

٢- الرس قرية بفلج اليمامة، قتلوا نبيهم فهلكوا، وهم بقية ثمود قوم صالح.

٣- أصحاب الأخدود، والرس هو الأخدود"(١).

وقوم تبع ذكرهم الله في آية ثانية عدا آية ق في سورة الدخان قال تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الدخان:الآية ٣٧] .

وكذلك تعددت أقوال المفسرين في تحديد قوم تبع وكان أشهرها:

أنه أحد ملوك اليمن. قال الجوهري: "والتبابعة ملوك اليمن واحدهم تبع"(٢). ولم يفصل السياق القرآني في كيفية هلاك أصحاب الرس وقوم تبع ولم يذكر نبي كل منهم بل غاية ما ذكر أنهما أقوام هلكت ضمن الأمم الهالكة.

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٢٨٥، مصدر سابق.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦، ص١٤٤، مصدر سابق.

كما أهلك الله أمما أخرى غير التي ذكرت في القرآن الكريم كأصحاب الفيل، وأهلك أمما أخرى لم يذكرها القرآن الكريم بدليل قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الفرقان:الآية ٣٨] .

وهلاك الأمم من أوضح السنن الإلهية التي اعتنى السياق القرآني بالوقوف عندها، والمقصود بالسنن التي مفردها سنة "الطريقة المعبدة والسيرة أو المثال المتبع، وأمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل، وما تبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة وغير ذلك قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام"(١).

وهذه السنن تمثل قوانين تسير عليها مخلوقات الكون كلها من بشر وغيرهم، قد تكون كالأفلاك. قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة يس:الآية ٤٠] .

وقد تكون اجتماعية بشرية كسنة الإهلاك وسنة الابتلاء وسنة التغيير.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ۙ ﴾ [سورة يونس:الآية ١٣] .

وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:الآية ٢] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [سورة الرعد:الآية ١١] .

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ج٤، ص١٤٠.

فحضارات البشر تقوم وتزدهر ثم تتلاشى وتهلك، وكل ذلك يكون وفق سنن إلهية. والسنن بنوعيها المادي منها والمعنوي ثابتة ومطردة لا تتغير ولا تتحول. قال تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:الآية ٦٢] .

فأي أمة تحققت فيها أسباب سنة الهلاك لابد وأن تهلك سواء أكان ذلك الهلاك على شكل حلقة واحدة متصلة فتهلك كليا أم على شكل حلقات متعددة أي أن العذاب يصيب أجزاء منها وفي عصور مختلفة كالأمة المسلمة.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها"(١).

وهذا الحديث يدل على أن العذاب يقع على الأمة المسلمة لكنه لا يكون عذاب استئصال، وينزل بالصالحين كما ينزل بالعاصين. فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: "قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث"(٢).

إن الله لا يحابي أمة على أخرى، بل كلها واقعة تحت مظلة السنن الإلهية، الأمر الذي يجعل تلك الأمم حريصة على السير وفق سنن الله تعالى وهذه السنن العديدة تشكل منظومة متناسقة، فلا تتصادم ولا تتناقض، فمثلا عندما يبسط الله الخير لأمة من الأمم بسبب تحقيقها أسباب ذاك البسط وشرائطه، لا يمكن أن يتناقض مع سنة أخرى من سنن الله وهي سنته في إهلاك الأمم المترفة وأخذها لاغترارها بما حازت من الخير والقوة فابتعدت عن منهج الله سبحانه وتعالى.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن واشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض رقم (٢٨٩٠)، ص١١٠٧.
(٢) صحيح البخاري، كتاب احاديث الأنبياء، باب قصة ياجوج وماجوج، رقم(٣٣٤٦)،ص٦٣٩-٦٤٠.

إن في القرآن الكريم مساحات واسعة ظهرت من خلالها سنن الله تعالى سواء أكانت المادية أم الاجتماعية، وجميعها تتطلب فهما عميقا ودراسة واعية.

"والعلم بها هو الذي وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو القائد لهذا المجتمع فطاف آفاق السماوات والأرض نظارا باحثا يستشف الحقائق الكونية"(١).

ويجب على أمتنا المسلمة أن تحرص على تلك المعرفة في هذا الزمان حتى تداوي جروحاتها وتعود إلى طريق الله متبصرة بسننه تعالى من خلال كتابه الكريم الذي يعتبر معجزة نبيها الكريم التي أعجزت البشرية وما زالت إلى يوم القيامة، "فالقرآن هو الذي طرح على العقل البشري ولأول مرة مسألة السنن والنواميس التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفاتها التي لا تخطئ وعبر مسالكها المقننة التي ليس إلى الخروج عليها سبيل"(٢).

وهذا يلقي على المفسرين دورا مهما في الإشارة إلى تلك السنن وبيان مدى ارتباط كل منها ببقية السنن كل بحسب قدرته التي رزق بها، ولهذا قال محمد رشيد رضا "أنزل الله الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر"(٣).

وللسنن الإلهية في الاجتماع البشري علل وأسباب متى توفرت تحققت تلك السنة، والسبب كما قال الراغب "أصله الحبل الذي يصعد به النخل، وجمعه أسباب، وسمي كل ما يتوصل به إلى شيء سببا، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [سورة الكهف:الآية ٨٤] أي آتاه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها"(٤).

---

(١) محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، ط٣، منشورات العصر الحديث، ١٩٧١م، ص٢٧.
(٢) عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، كتاب الأمة، ص٥١.
(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، ص٢٤، مرجع سابق.
(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٢٥ (بتصرف يسير)، مصدر سابق.

وسنة الهلاك لها أسبابها الخاصة والتي هي بمثابة مقدمات متى وجدت في الأمم البشرية تبعتها نتائجها حتما، وهذه الأسباب ترجع الى : الجهل والترف والظلم وترك الأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر ثم ترك الجهاد في سبيل الله وهذا ما سأتناوله بالتفصيل في الفصول التاليـــه من هذه الرساله ان شاء الله..

الفصل الثاني

الجهل وأثره في هلاك الأمم

المبحث الأول

بيان مفهوم الجهل

المبحث الاول: بيان مفهوم الجهل

مفهوم الجهل في اللغة والاصطلاح:

اعتبر القران الكريم الجهل من الأسباب الرئيسية في هلاك الأمم البشرية، فدائرته واسعة ترتبط بها كل الأسباب الأخرى، لذلك اولت الآيات القرآنية اهتماما يكاد يكون خاصا بالجهل مبينة خطره وآثاره المدمرة على الأمم، فكم من أمة أهلكها الله تعالى بسبب الجهل، وما زالت المجتمعات البشرية في هذا العصر تعيش حياة تنطوي على صور عدة من صور الجهل تتفاوت في خطرها.

والمقصود بمصطلح الجهل في اللغة: "نقيض العلم[١]، ,وضد العلم، والعلم تصور الشيء بما هو عليه أو تصديق لذلك والجهل يقابله"[٢].

والجهل الخفة وخلاف الطمأنينة[٣]، يقال استجهلت الريح الغصن إذا حركته فاضطرب، ومنه قول النابغة:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

ومعنى استجهلتك أي استخفتك واستفزتك[٤].

وتأتي مادة الجهل على ثلاثة أنواع هي: -

"١- الجهل ضد العلم.

٢- الجهل الضياع والتيه وهو معنى مجازي تفرع عن المعنى الأول، كأن الذي لا يعلم الطريق أو المكان يتيه فيه ويضيع.

٣- الجهل السفه والطيش والغضب والاعتداء"[٥].

---

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ج١، ص٤٨٩-٤٩٠.
وانظر * ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص١٢٩-١٣٠، مصدر سابق.

(٢) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ج١، ص٤٠٧، مصدر سابق.

(٣) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج١، ص٤٨٩، مصدر سابق.

(٤) المصدر ذاته، ج١، ص٤٨٩-٤٩٠.
وانظر * ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص١٣٠، مصدر سابق.
• محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٠٧

(٥) عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥م، ص١٤٦.

أما في الاصطلاح فيأتي الجهل على ثلاثة أضرب هي:

"الأول: خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضيا للأفعال الخارجة عن النظام، كما جعل العلم معنى مقتضيا للأفعال الجارية على النظام.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد منه اعتقادا صحيحا أم فاسدا، كمن يترك الصلاة متعمدا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٦٧] فجعل الهزو جهلا"[١]. وهذا الكلام يدل على أن الجهل يمكن أن يكون أولا: جهل بالاعتقاد والفكر. ثانيا: جهل بالسلوك والعمل"[٢].

ومن السياق القرآني ندرك أن القرآن الكريم عنى بالجهل: "ضد العلم وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢٧٣] .

والجهل بمعنى الإعراض عن دين الله، وعدم تقدير آيات الله وفهمها، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [سورة الزمر:الآية ٦٤] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [سورة الأحقاف:الآية ٢٣] .

وما أكثر ما يتضح هذا المعنى في الآيات الأربع التي ورد فيها لفظ الجاهلية[٣]، وهذه صيغة أوجدها القرآن الكريم وانتشرت فيما بعد لتكون علما على الفترة التي سبقت نزول القرآن،

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٠٩، مصدر سابق.

(٢) صلاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ط١، دار النفائس، الأردن، ١٩٩٧م، ص٨٨.

(٣) الآيات الأربع هي قوله تعالى: **﴿يظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية﴾** [آل عمران: ١٥٤].
وقوله تعالى: **﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾** [المائدة: ٥٠].
وقوله تعالى: **﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية﴾** [الأحزاب: ٣٣].
وقوله تعالى: **﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾** [الفتح: ٢٦].

"قال السيوطي في المزهر، قال ابن خالويه: إن لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة"(١).

وهذه إشارة قرآنية لطيفة جدا، إذ إن الجهل ليس فقط كما يتصوره البعض بأنه ضد العلم، فهذه حالة قد يتصف بها المؤمن وغيره، بل الجهل هو الإعراض عن منهج الله عز وجل؛ "وهي حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٥٠] ".

هي إذن مقابل معرفة الله والاهتداء بهدي الله، والحكم بما أنزل الله...، وليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة المادية ووفرة الإنتاج، ومن ثم فهي ليست محصورة في مدة من الزمن، وإنما هي حالة يمكن أن توجد في أي وقت وفي أي مكان كما توجد كذلك في أي مستوى من المعرفة والحضارة والتقدم المادي والقيم الفكرية والسياسية والاجتماعية والإنسانية"(٢).

إن القرآن الكريم اهتم بهذا المعنى للفظ الجهل - الابتعاد عن المنهج الالهي- وهذا ما تحاول الأمم العلمانية رفضه ومحاربته، وجعل الجهل منحصرا في عدم العلم فقط وذلك لاتباع هواهم وقد حارب المفسرون المعاصرون هذا الحصر في المعنى لأنه يشجع الأمم على الانحراف عن طريق الحق؛ ومنهم المفسر سيد قطب رحمه الله الذي أكد على ذلك المعنى للجهل؛ فقال "إنه الانحراف عن العبودية لله وحده، وعن المنهج الالهي في الحياة واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي"(٣).

---

(١) نقلا عن عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ص١٤٨-١٤٩ (بتصرف يسير)، مرجع سابق.
(٢) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ط١، مكتبة وهبة، ١٩٦٤م، ص٩+١١.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص١٢٥٦، مرجع سابق.

وأكد على أن الجاهلية "ليست فترة معينة من الزمان، إنما هي حالة اجتماعية معينة ذات تصورات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الحالة وأن يوجد هذا التصور في أي زمان وفـــي أي مكان فيكون دليلا على الجاهلية حيث كان"(١).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القران، ج٥، ص٢٨٦١.

المبحث الثاني

أسباب الجهل ومظاهره في القرآن الكريم

المبحث الثاني: أسباب الجهل ومظاهره في القرآن الكريم:

بينت الآيات القرآنية اسباب الجهل ومظاهره التي كانت تعيشها الأمم السابقة والتي ادت الى اعراضها عن قبول دعوة الحق مما ادى بها الى الهلاك والدمار ومن قبلهما الضياع والتخبط، فالجهل كسبب اساسي في هلاك الامم له دوافع ظهور ومظاهر وجود على أرض الواقع لابد من معرفتها ودراستها وبيان مدى اهتمام القران الكريم بها، وتلك الأسباب هي :

أولا: الشرك: عد القران الكريم الشرك من أخطر المهلكات، وقد عانت البشرية منه في كل العصور وما زالت.

"إن عدم النضوج العقلي يجعل العقل فريسة سهلة للتصديق بالخرافات والأساطير ولهذا فإن الإشراك بالله كان أقوى مظاهره عند الأمم القديمة ثم أخذ يضعف تبعا لانتشار العلم، فالإشراك بالله مع مجافاته للمنطق لا يرتكز على أي دليل علمي مقبول تقنع به النفس، ومن السمو العظيم الذي يتحلى به القرآن عن محاجته للمشركين هو ذلك الطابع العلمي الذي يتفق مع المنهج العلمي الحديث والذي يثبت أن القرآن يحترم الفكر"(١).

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:الآيتان ٤-٥] .

إنه كلام رب العالمين لذلك لا عجب من ذوبان المشاعر وارتجاف القلب عظمة لله تعالى من ذاك الحوار مع الكافرين، وما هو إلا " إلفات المشركين إلى هؤلاء المعبودين الذين

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة، اليهود في القرآن، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٧٩-٢٨٠.

يعبدونهم من دون الله، وإعادة النظر إليهم، نظرا فاحصا متحققا، وذلك ليجيبوا على ما يسألون عنه في شأن هؤلاء المعبودين وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء المشركين، كانوا في غفلة عن معبوداتهم تلك، وأنهم إنما يعبدونها عن تقليد، بلا دواع أو تفكير، ولهذا طلب إليهم أن يعيدوا النظر في معبوداتهم تلك، وأن يتحققوا من صفاتها وما تملك بين أيديها من قوى..."(١).

لقد بينت الآيات القرآنية أن الشرك هو الذي يبني الجهل في نفوس الأفراد والأمم مما يجعلها تنحرف عن كل ما هو حق، بل وتتواصى بالشرك والكفر. قال تعالى عن قوم سيدنا نوح عليه السلام ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة نوح:الآيتان ٢٣-٢٤] .

قال ابن كثير: (يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا فانه استمرت عبادتها في القرون الى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه " واجنبني وبني ان نعبد الأصنام، رب انهن أضللن كثيرا من الناس ") (٢).

لقد عكف قوم سيدنا نوح عليه السلام على شركهم، ولم يكترثوا بنبيهم ودعوته، وبلغت بهم جهالتهم أن استعجلوا العذاب بسخرية واستهزاء، هذا الاستهزاء الذي أصبح عندهم فنا متقنا يحاربون به المؤمنين، ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة هود:الآية ٣٢] ، بل هو من الصادقين وإن الصدق في جنباته يسير.

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، ج٥، ص٢٦١.
(٢) ابن كثير، تفسير القران العظيم، ج٨، ص٢٣٦، مصدر سابق.

إن قوم هذا النبي الصادق الكريم تمادوا في شركهم فأوردهم الله موارد الهلاك، وأغرقهم ونجى المؤمنين الموحدين، فلم يصبهم من أسباب الهلاك شيء ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة هود:الآية ٤٤] .

وكانت ثمود من زمرة الأمم الجاهلة التي أشركت بالله تعالى، ولم تلق لدعوة نبيها سيدنا صالح -عليه السلام- بالا فأقامت على شركها مستكبرة قال تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة هود:الآيتان ٦٢-٦٣] .

"لقد شكوا في دعوته إلى عبادة الله وحده دون أن يتوسلوا إليه بأحد من الشفعاء المقربين عنده، ولا أن يعظموا ما وضعه آباؤهم لهم من صور وتماثيل تذكرهم بآبائهم، فكل هذا يوجب الريب والتهمة وسوء الظن وعدم الطمأنينة إلى دعوته"[١].

إن إرادة البشر إذا استساغت الجهل، واتخذته لها منهجا مبررة إياه بشتى الوسائل والطرق، تكون قد حكمت على نفسها بالعيش في ظلمة دهماء ومن ثم الهلاك وهو ما حل بثمود التي أشركت بربها ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة هود:الآية ٦٦] .

وعلى نفس الخطى سارت أمم أخرى فجهلت وأشركت بربها فحق عليها الهلاك ومنها قوم عاد ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج٤، ص٣٣٠ (بتصرف)، مرجع سابق.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة هود:الآيتان ٥٣] . وكان عذاب الله لهم باشراكهم فعذبهم عذابا شديدا في هذه الدنيا وادخر لهم ما يستحقونه في الآخرة قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة هود:الآيات ٥٨-٦٠] .

"وقد وصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم، يتناسق مع الجو ومع القوم الغلاظ العتاه، والآن وقد هلكت عاد يشار إلى مصرعها إشارة البعد ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب وتشيع باللعنة والطرد في تقرير وتكرار وتوكيد"(١).

"إن الجهل الحقيقي هو الكفر وأي جهل أكبر وأدهى من جهل من لا يعرف ربه؟ كيف يشاهد المرء مصنع هذا الكون العظيم دائبا على عمله ليلا نهارا ثم لا يعرف من خلقه وأوصى إليه الدأب على عمله؟.

أو ليست مما لا يقضي العجب منه، أن يشاهد الإنسان في كل ناحية من نواحي هذا الكون أشياء كثيرة بنفسها على ما يحتاج إليه صنعها وتحسين منظرها من براعة نادرة منقطعة المثال، ثم لا يهديه به عقله إلى معرفة ذلك العزيز الحكيم العليم الذي عني بصنعها وإنشائها! تفكر قليلا: هل يمكن أن ينفتح باب العلم، إنه مهما بالغ في التفكير وازداد بحثا وتنقيبا فلن يهتدي إلى طريق مستقيم يوصله إلى العلم الصحيح في أي شعبة من شعب الحياة لأنه يواجه ظلمة الجهل"(٢).

إن الشرك واحد عبر العصور المتعاقبة كلها رغم اختلاف صوره، ولا ينبني عليه سوى الجهل العميق المؤدي للهلاك والدمار.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القران، ج٤، ص١٩٠٠ (بتصرف)، مرجع سابق.
(٢) أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام، ط٢، مكتبة الشباب المسلم، ١٩٥٧م، ص١١ (بتصرف).

ثانيا: العصبية والعناد: إن تمسك الأفراد بالعصبية والعناد يجرهم إلى الشر والفساد، فكيف إذا كانت العصبية خلق أمة من الأمم، لابد أن يحرمها ذلك من الخير والسلامة لما للعصبية من سلطان قوي يقود إلى الجهل الذي يورد الأمم المهالك.

إن العصبية الجاهلية كانت خلق كثير من أقوام الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، الأمر الذي جعل حياتهم تمتلىء بالجهل، فرفضوا دعوة التوحيد مع علمهم أنها دعوة حقة ودعوة صادقة رفضت عنادا وحمية ليس أكثر، وقد سجل السياق القرآني مواقف كثير من الأمم السابقة المعاندة والتي ما ساقها إلى الجهل إلا العصبية التي جعلتهم يرفضون بشدة كل ما يبعدهم عن طريق آبائهم، فها هم قوم سيدنا نوح -عليه السلام- استكبروا أن يوحدوا الله تعالى ويتركوا ما كان يعبد آباؤهم ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:الآية ٢٤] .

إن جهلهم هو الذي حدا بهم لذلك، هو ذات ما رفضه فرعون وقومه لما دعاهم سيدنا موسى عليه السلام ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة يونس:الآية ٧٨] .

إن هذا الرفض مبرر باستنكار ترك إرث الآباء والأجداد من الجهل "فقد لجأوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، وكم بقي على الباطل وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر"(١).

---

(١) صديق حسن القنوجي البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ج٣، ص٢٦٦.

كما بينت الآيات القرآنية ما وصل إليه قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام من الجهل حتى عظموا ما ورثوا عن آبائهم من الكفر والشرك، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ ﴾ [سورة الأنبياء:الآيتان ٥٢-٥٣] .

"إنه ليس حجة أن يضل إنسان لأن من قبله كان على ضلال، وما جدوى أن يكون للإنسان عقل ينظر به في الأمور، ويتعرف إلى ما هو حق أو باطل، وخير أو شر؟ ولم إذن يستعمل الإنسان عينيه، ولا يستغني عنهما في التعرف على الأشياء حوله؟ إن هذا المنطق يقضي بأن يغمض الإنسان عينيه ثم يضع يده على كتف أي ذي عينين ليقوده ويتبع خطاه"(١).

وقد عبر القرآن الكريم عن العصبية المؤدية للجهل والظلم في الحياة كلها بالحمية، هذا التعبير الذي يحمل في طياته كثيرا من المشاعر البشرية.

وأعني بالحمية أصلها من الحمي أي "الحرارة المتولدة من الجواهر المحمية كالنار والشمس ومن القوة الحارة في البدن. وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية، قيل حميت على فلان أي غضبت عليه"(٢).

قال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾ [سورة الفتح:الآية ٢٦] .

"حمية الجاهلية هي العقلية العاطفية الانفعالية التي تستحكم في نفس الإنسان فتشعل أعصابه، وتدفعه إلى أن يعامل الناس بروح العدوان فيحرمهم حقوقهم الطبيعية لمجرد أنه يختلف

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٣، ص٩١٢، مرجع سابق.
(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٥٨-٢٥٩، مصدر سابق.

معهم في الرأي والهوى دون أن ينظر إلى موقفه نظرة موضوعية ليكتشف أنه محق أو مبطل، على صواب في موقعه أو على خطأ"(١).

إن قريشا قوم النبي سيدنا محمد ﷺ وقعت في الجهالة نفسها، فقد عكفت على إرث آبائها من الكفر والعناد وصدقت بذلك ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآية ٢٢] .

وأخذت تقاوم كل فعل أو قول يحاول تنحيتها عن ذاك الدرب لذلك دبت الحمية في قلوب أبنائها فمنعوا سيدنا محمد ﷺ والمؤمنين من دخول مكة مسالمين لأداء عبادة.

وقد روى البخاري حديثا طويلا في صلح الحديبية كانت عصبية قريش وحميتها تقود عقول زعمائها "هذه الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ ومن معه يمنعونهم من المسجد الحرام ويحبسون الهدي الذي ساقوه أن يبلغ محله الذي ينحر فيه، مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة، كي لا تقول العرب إنه دخلها عنوة، ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام"(٢).

"قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ قد سهل من أمركم قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال النبي ﷺ: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب "باسمك اللهم" كما كنت تكتب. فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال النبي ﷺ: اكتب "باسمك اللهم" ثم قال: "هذا ما قاضى

---

(١) محمد شمس الدين، بين الجاهلية والإسلام، ط٤، المؤسسة الدولية للدراسات، ١٩٩٥م، ص٢٥١-٢٥٣.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٣٢٩.

عليه محمد رسول الله" فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب "محمد بن عبد الله" قال الزهري: وذلك قوله "لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها" فقال النبي ﷺ على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب..."(١).

إن العصبية النابعة عن الجهل المطبق هي التي جعلت قريشا تتسم بما اتسمت به الأمم الهالكة من الجهل فرفضت بكبرياء مزيف كتابة "الرحمن الرحيم" في الصحيفة، كما أصرت واستكبرت على رفض كتابة "محمد رسول الله" هذا مع أن قلوبهم وعقولهم صدقت بالله الرحمن الرحيم وبأن سيدنا محمدا – صلى الله عليه وسلم- رسوله الكريم.

قال تعالى مواسيا لنبيه سيدنا محمد ﷺ بما وقع للرسل السابقين ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام:الآيتان ٣٣-٣٤] .

إن عنادهم وعصبيتهم العمياء دفعتهم لجحود دعوة سيدنا محمد ﷺ لذلك هددهم الله تعالى وتوعدهم بالعذاب، "إنهم لا يكذبون محمدا ولكنهم يكذبون بآيات الله التي بين يديه، فانظر هذا التناقض العجيب فهم يؤمنون بمحمد وصدقه كإنسان، فإذا جاءهم بآيات ناطقة من عند الله أنكروا عليه، ولو عقلوا لما وجدوا لهذا القول مستندا من عقل أو منطق إذ كيف لا يتهم إنسان بالكذب في حال، ثم يتهم به في حال أخرى؟ إن الإنسان وحدة متكاملة في خلقه، فإما أن يكون صادقا لا يكذب، وأما أن يكون ممن لا يتحرى الصدق في كل قول"(٢).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الاجتهاد والمصالحه مع أهل الحرب، رقم (٢٧٣١) و(٢٧٣٢)، ص ٤٩٩-٥٠٢.

(٢) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٢، ص١٦٠ (بتصرف)، مرجع سابق.

إن الجهل هو الذي يؤدي إلى التناقض والتخبط الذي يقوض الحضارات ويدمر وجودها وحينئذن تنتشر مظاهره في جميع انحاء الحياة والتي تكون متمثلة فيما يلي: :-

أولا: مظاهر الجهل في الحياة السياسية:

بين القران الكريم ان الله تعالى سن للبشر شرائع خاصة وضعها برحمته حتى يعيشوا حياة سليمة من الفساد، ولا شك أن هذا حق خالص له سبحانه فهو المشرع الحقيقي للخلق كلهم عالم بكل ما يناسبهم ويلائم حياتهم، والأمم الجاهلة هي التي ترفض هذا الشرع فتعمل على تنحية شريعة الله تعالى عن مسار حياتها وهي بذلك تكون قد ضلت ضلالا كبيرا بارتكابها هذا الجرم في حق الله تعالى ثم في حق نفسها مما يؤدي بها إلى الفساد والهلاك.

إن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى يعتبر أوضح مظهر من مظاهر جهل الأمم واستبداله بحكم الجاهلية. قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٥٠] .

قال الألوسي " إنكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي يتولون عن قبول حكمك بما أنزل الله تعالى فيبغون حكم الجاهلية" (١).

"ومعنى الجاهلية يتحدد في ضوء هذا النص فهي ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام والمناقضة للإسلام"(٢).

وفي عصرنا هذا نعيش أكبر جاهلية فلم يكتف بتنحية حكم الله عن واقع حياة الناس، بل هذا الشرع يحارب من أعداء يصعب حصرهم نعلم قليلا منهم، وكثيرا لا نعلمهم والأعجب أن معظمهم ينتمي للإسلام رياء ونفاقا وزورا، وإلا لما حاربوا شريعة رب العباد، مستحدثين كثيرا

---

(١) شهاب الدين السيد محمود الألوسي روح المعاني، ط١، دار احياء التراث العربي،١٩٩٩،ج١،ص٤٤٣.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٢، ص٩٠٤-٩٠٥ (باختصار)، مرجع سابق.

من الشرائع والأحكام نحو ما استحدث غيرهم محاولين خلق المعاذير بتلاؤم ما ابتدعــــوا مــن شرائع مع دين الله وشريعته وهم بفعلهم هذا جاهلون لأن كل طرف يكون على نقيــض الآخــر "فحكم الجاهلية منهاجها في الحياة ونظامها المقابل للنظام الالهي الحق الذي هو الإسلام وقد بين الله تعالى المقابلة بين حكم الجاهلية وحكم الإسـلام ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٥٠] . فهذه الآية تبين أن ثمة نظامين ومنهاجين في الحكم والحياة هما المنهاج الإسلامي والمنهاج الجاهلي، وتجعل أحدهمـــا مقــابلا للآخر ومضادا له، فلا يمكن أن يجتمعا ويتآخيا في نظام واحد ومنهاج واحد"(١).

وقد وصفت سورة المائدة من يفعل ذلك بثلاثة أوصاف هي: -

"الأول: الكفر لمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله، وجحد بقلبه ولسانه.

الثاني: الظلم: والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه الأصلي، ومن يرتكب ذلك الذنب فهو قد ظلم نفسه وتسبب لها بالعقاب.

الثالث: الفسق، لأنه جاوز حدود الله سبحانه وتعالى، وأتى بما يضاد حكمه في العمل، أما فـــي الإقرار والاعتقاد فهو موافق"(٢).

قــال تعــالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ســورة المائدة:الآية ٤٤] .

وقال أيضا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ســورة المائدة:الآية ٤٥] .

وقال أيضا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ســورة المائدة:الآية ٤٧].

---

(١) يحيى الشامي، الشرك الجاهلي، ص١٦، مرجع سابق.

(٢) محمد بن عمر الفخر الرازي، التفسير الكبير، ط٢، دار إحياء التراث العربـــي، بـــيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص٣٦٨-٣٦٩.

وانظر * وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م، ج٦، ص٢٠٧.

وحملت هذه الآيات إعجازا بليغا إذ أنه سبحانه قدم وصف الكفر على الظلم، مع أن المقام مقام تهديد ووعيد، والتهديد عادة يكون بالأخف ثم بالأقوى والأعظم، وذلك لبيان عظم الحكم بغير شرع الله تعالى في الحياة "فالكفر تقصير في حق الخالق سبحانه، والظلم تقصير في حق النفس"(١).

ثانيا: مظاهر الجهل في الحياة الاقتصادية:

بينت الآيات القرآنية أن للجهل مظاهر اقتصادية كثيرة تعيشها الأمم الجاهلة وتكتوي بنارها، وفي هذا العصر نجد الفساد في الحياة الاقتصادية للناس، فقد تلاشت الأسس الصحيحة التي يقوم عليها الاقتصاد السليم، وقد نسي الإنسان أو تناسى أنه مستخلف في مال الله تعالى فانحرف عن طرق الكسب المشروعة وعن طرق الإنفاق المشروعة كذلك، رغم تبصير الشرائع الربانية عبر الأزمنة كلها بأسس حياته الاقتصادية السليمة حتى لا يغرق في المادية القاتلة، هذه المادية التي توغلت في قوم سيدنا شعيب عليه السلام حتى دفعتهم إلى تطفيف الكيل والميزان، حتى يشبعوا رغباتهم الاقتصادية بمختلف الوسائل حتى الحقير منها.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة هود:الآيتان ٨٤-٨٥].

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٦، ص٢٠٩، مرجع سابق.
وانظر * الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٤، ص٣٦٩، مصدر سابق.

"إنهم في حال من الرخاء والنعمة وسعة الرزق بحيث لا تضطرهم الحاجة إلى الخيانة في الكيل والميزان رغم ذلك فقد كانوا أئمة في ذلك.

إنها قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة، فقد كان أهل مدين ينقصون الناس قيمة أشيائهم في المعاملات، وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد كما تمس المروءة والشرف.

إن المعاملات والأخلاق لابد وأن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة، هذه هي نظرة الإسلام وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتكز على تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم.

وهي حين تستند إلى ذلك الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح القريبة، كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة"[١].

إن ظلام الجهل الذي كانت تحياه اقوام شعيب هو الذي دفعها لإنقاص الكيل والميزان فأسهم هذا الذنب الذي ارتكبته رغم الخيرات المغدقة عليها في جر الهلاك لها، فكيف بارتكاب ما هو أكبر من ذلك في الاعتداء على مال الآخرين بأساليب مختلفة كالسرقة. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٣٨] .

"وليس ذلك التغليظ في عقوبة السرقة قسوة من الإسلام، واستخفافا بالإنسان واسترخاصا لوجوده، وإنما ذلك العقاب هو الجزاء العادل الرحيم إزاء هذا الجرم الشنيع الذي يعده الإسلام اعتداء على حرمة الإنسان في أعز ما يحرص عليه وهو المال.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص١٩١٧ (باختصار)، مرجع سابق.

وإذا كانت المدنية الحديثة قد استخفت بهذه الجريمة حتى استباحت سرقة الأمم والشعوب، فإن الإسلام يحترم الإنسان ويرعى حرمته في دمه وماله وعرضه"(١).

ولا تنتشر مظاهر الجهل في الحياة الاقتصادية عند الامم إلا وهي غارقة في ظلام الجهل ومن هذه المظاهر غير ما ذكرت سابقا أكل مال اليتيم والاحتكار والرشاوي والتهريب وكلها آفات تعاني منها الامم الجاهله.

ثالثا: مظاهر الجهل في الحياة الاجتماعية:

تنتشر مظاهر الجهل في حياة الناس فتفسد قواعد العلاقات والقيم الاجتماعية في الأمة وتختفي معالم الخير بمرور الزمن وتضيع هيبة الأمة، ويعد خلل العدالة الاجتماعية ثم فقدانها من أبرز مظاهر الجهل في حياة المجتمع، ولا يكون ذلك إلا إذا غيب الضمير البشري عن الواقع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [سورة النساء:الآية ٥٨] ، قال ابو السعود " في تصدير الكلام بكلمة التحقيق واظهار الاسم الجليل وايراد الامر على صورة الاخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه مالا مزيد عليه، وهو خطاب يعم حكمه المكلفين"(٢).

كما أن العدل يعتبر " اساس الملك، وأمر تقتضيه الحضارة والعمران والتقدم وتشيد به كل العقول، وأصل من أصول الحكم في الاسلام، ولابد للمجتمع، منه حتى يأخذ الضعيف حقه، ولا يبغي القوي على الضعيف، ويستتب الأمن والنظام، واجتمعت الشرائع السماوية على وجوب اقامة، العدل فعلى الحاكم واتباعه من الولاة والموظفين والقضاه التزام العدل حتى تصل الحقوق لاهلها"(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ١٥٢] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [سورة النحل:الآية ٩٠] .

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج١، ص١٠٩٤، مرجع سابق.
(٢) محمد بن محمد ابو السعود، ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، ج٢، ص١٥٤،مصدر سابق.
(٣) وهبه الزحيلي، التفسير المنير،ج٥، ص١٢٤.

إن غياب العدالة الاجتماعية في هذا العصر هي التي أدت إلى غيـــاب خلـــل القضـــاء وفقدان دوره في الحياة الواقعية.

ومن المظاهر الاجتماعية للجهل الانحراف السلوكي المتمثل في الزنا، قـــال تعـــالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة النور:الآية ٢] .

وقد صرح السياق القرآني بأن الزنا مظهر من مظاهر الجهل الاجتماعية ففـــي قصـــة سيدنا يوسف عليه السلام في السورة المسماة باسمه. قال تعـــالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة يوسف:الآيتان ٣٣-٣٤] .

ومن تلك المظاهر ظهور جريمة اللواط في قوم سيدنا لوط عليه السلام، قال تعـــالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة النمل:الآية ٥٥] .

كما تعد الأمراض الاجتماعية كالنفاق، والسخرية، وسوء الظن، والاستهزاء، من مظاهر الجهل ففي هذه الأمراض قال تعـــالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الحجرات:الآية ١١] " فالمجتمع الفاضل الـــذي يقيمـــه الاسلام بهدي القران مجتمع له أدب رفيع ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس وهي من كرامـــة المجموع، وعز أي فرد هو عز لذات النفس لأن الجماعه كلها وحدة كرامتها واحدة"(١).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القران، ج٦، ص٣٣٤٤، ،مرجع سابق.

وكذلك النجوى إلا في خير قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠ ﴾ [سورة المجادلة:الآيتان ٩-١٠] .

كما حذر القرآن من سوء الظن لأنه منشئ للفتن بين الناس، فإن بـرز كظاهرة في المجتمع تتبعه الفتن. قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ [سورة الحجرات:الآية ٦] " فلا بد من التثبت من الأخبار المنقولة والروايات المروية، أخذا بالحيطة والحذر ومنعا من إيذاء الآخرين بخطأ فادح فيصبح المشرع في الحكم والتصديق نادما على العجله وترك التأمل والتأني"(١).

"إن انتشار مثل هذه الأخلاق في المجتمعات نذير لها بالهلاك وإن انتشار مثل هذه الأخلاق في المجتمعات سببه فعل السيئات التي ترجع إلى الجهل وإلا فلو كان عالما علما نافعا بأن فعل هذا يضره ضررا راجحا لم يفعله... كالسقوط من مكان عال لعلمه بأن هناك ضررا لا منفعة"(٢).

ومن المناسب ذكره في هذا المقام بيان نموذجا قرآنيا من الأمم الجاهلة، "كأمة عاد". "فقد بعث الله سيدنا هودا عليه السلام إلى قبيلة عاد وكانت تعيش في "الأحقاف، جمع حقف وهو الجبل المستطيل المعوج من الرمل"(٣)، "واختلف الناس في هذه الأحقاف أين كانت والصحيح أن بلاد عاد كانت في اليمن"(١).

---

(١) وهبه الزحيلي، التفسير المنير،ج٢٦، ص٢٢٩، مرجع سابق.
(٢) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الحسنة والسيئة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٥٨.
(٣) عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق الرحالي الفاروق وآخرون، ط١، طبع على نفقة خليفة بن حمد آل ثاني، ١٩٧٧م، ج١٣، ص٣٥٨.

وقد بين القرآن أن عادا كانت أمة جاهلة عاندت نبيها سيدنا هودا عليه السلام في دعوة الله تعالى وأصرت على جهلها، فاستحقت ما أصابها من الهلاك، وكان أهم مظاهر جهلها ما يلي: –

١ – كفرهم بالله تعالى وهو أعظم ما اقترفت عاد، رفضت دعوة نبيها سيدنا هودا عليه السلام لما دعاها إلى الإيمان بالله سبحانه مبصرا إياها بسبل الحياة الهانئة. قال تعالى ﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:الآيات ٢١-٢٣]. " أنكروا على سيدنا هود عليه السلام هذه الدعوة التي يدعوهم اليها ويتهمونه بانه جاء ليضلهم عن آلهتهم ويصرفهم عنها، ويفسد مابيننا وبينهم"(٢)

وهم بشركهم هذا قد أصابتهم آفة الجهل فانحرفوا عن الدين، الحق واشربت قلوبهم بها حتى استحقوا الهلاك.

٢ – استكبارهم في الأرض وشدة بطشهم بغير الحق. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة فصلت:الآية ١٥] ، فقد نسوا خالقهم ورازقهم "فاستعلوا على من في الأرض بغير الحق أو بغير استحقاق

وانظر أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبد شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م، ج٤، ص٤٤٤.

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج١٣، ص٣٥٨، مرجع سابق.

(٢) عبدالكريم الخطيب، التفسير القرآني للقران، ج٥، ص٢٣٨، مرجع سابق.

لذلك وقع منهم التكبر والتجبر، وكانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب"[١].

" والقوة حين تكون بعيدة عن الحق وحين تنبعث من النفوس المعرضة المستعلية تصير سببا من أسباب الطغيان، بل من أخطر أسبابه، إنها تحمل أصحابها فتنسيهم أول بدهية من البدهيات وهي أنهم خلقوا ليموتوا فبقدر ما تجدهم يبنون في الدنيا مشيدين متفاخرين، إنهم يهدمون من جانب آخر بنيانهم الإنساني، فيصبح البطش طبيعتهم والتجبر ديدنهم فلا تزداد قلوبهم إلا قسوة، ومن هنا فهم أبعد من أن يتأثروا بنصح ناصح، أو برقة واعظ"[٢].

قال تعالى على لسان سيدنا هود عليه السلام ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٦٨] .

إنه خلق ذميم ومعصية عظيمة تسببت لهم في الشقاء والهلاك الذي لحقهم في هذه الدنيا وفي العذاب الذي سيلحقهم في الآخرة. قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة غافر:الآية ٦٠] .

٣ – العبث والتبذير الذي صدر منهم فكانوا يبنون ويشيدون عبثا. قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء:الآيتان ١٢٨-١٢٩] . أنكر عليهم ما يفعلون قائلا:

"أتبنون في كل مرتفع عال قصرا مشيدا للتفاخر والدلالة على الغنى وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم مخلدون في الدنيا"[٣]، وفي حال أن الإنسان إذا بسط له الرزق يجب ألا يكون مبذرا والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء:الآيتان ٢٦-٢٧] . "إنه نهى عن التبذير وهو

---

(١) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، تحقيق عبد الرحمن عمرو، ط٢، دار الوفا، المنصورة، ١٩٩٧م، ج٤، ص٦٩.
(٢) فضل حسن عباس، القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م، ص١٠٤.
(٣) المراغي، تفسير المراغي، ج٧، ص٧١، مرجع سابق.

تفريق المال كما يفرق البذر وهو الإسراف المذموم، كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتنفق أموالها في الفخر والسمعة كما ذكروا ذلك في أشعارها فنهوا عن ذلك وأمروا بالإنفاق فيما يقرب إلى الله"(١).

٤ – إنكارهم للبعث، قال تعالى ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:الآيات ٣٥-٣٧] .

"إن هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غاياتها البعيدة، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض، فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا والشر كذلك، إنما يستكملان هذا الجزاء هنالك حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى التي لا خوف فيها ولا نصب ولا تحول فيها ولا زوال، ويصل المرتكسون المنتكسون إلى درك الحياة السفلية التي تهدر فيها آدميتهم ويرتدون فيها أحجارا أو كالأحجار، مثل هؤلاء لا يدركون هذه المعاني ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ولا ينتهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الاطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت"(٢). لذلك كانت عاد تستبعد البعث وتنكره بجهالتها.

٥ – تكذيبهم سيدنا هودا عليه السلام واتهامه بالضلال. قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآيات ٦٦] .

قد من الله على عاد إذ بعث فيها سيدنا هودا عليه السلام يدعوها إلى الدين القويم ويرشدها إلى طريق النجاة من الهلاك في الدنيا والآخرة، فنصحها مبشرا و مرغبا، ومنذرا ومرهبا فكان عليها أن تطيعه ولا تعصيه، إلا أنها كذبته وغلبت عليها شقوتها فلجت في الضلال.

---

(١) نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، ج٤، ص٣٤٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٤٦٧، مرجع سابق.

عارض عذاب لكم، بل هو ما استعجلتم به، فقلتم "ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين" "ريح فيها عذاب أليم" والريح مكررة على ما في قوله "هو ما استعجلتم به" كأنه قيل: بل هو ريح فيها عذاب أليم"[١].

كما أهلكهم الله تعالى بالصيحة قال تعالى في سورة المؤمنين[٢]: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:الآية ٤١] . والغثاء "ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها ولا قيمة ولا رابط بينها"[٣].

قد كان هلاك عاد عبرة لكل أمة جاءت بعدها حتى لا تسلك مسالك عاد، والعاقل من يعتبر، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء:الآية ١٣٩] .

---

(١) المصدر ذاته،ج١١، ص٢٩٣.

(٢) سورة المؤمنين لم يذكر فيها هود عليه السلام كما لم يذكر فيها اسم عاد، وإنما ذكرت عقب قصة نوح عليه السلام، ونحن نعلم أن القرآن يذكر عقب قصة نوح قصة هود عليهما وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه والآيات تحدثت عن أولئك بصيغة التنكير"، فضل عباس، القصص القرآني، ص١٠١، مرجع سابق.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٤٦٨.

ثم ساق القرآن الكريم، مصرع عاد قوم سيدنا هود عليه السلام وبين ما لحقها من شدة وهول في هذه الدنيا، فأذاقها الله تعالى الخزي، فكانت من أعتى الأمم تجبرا واستكبارا. وكان إهلاكها بالريح الشديدة التي سلطها الله عليهم، وقد وصف القرآن هذه الريح بعدة أوصاف تدل على كونها أداة قوية من أدوات الهلاك الرباني:-

١- ريح صرصر عاتية سلطت عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾ [سورة الحاقة:الآيتان ٦-٧] .

والمقصود "بوصف صرصر: الشديدة الباردة"[١].

أما وصفها عاتية: "شديدة العصف"[٢].

وأما وصف حسوما: "أي متتابعة لا تنقطع"[٣].

٢- ريح تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، قال تعالى: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ ﴾ [سورة القمر:الآية٢٠] .

٣- ريح عقيم لا خير فيها دمرت كل شيء مرت عليه بشكل كامل، قال تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ ﴾ [سورة الذاريات:الآيتان ٤١-٤٢] ، والريح العقيم: "التي لا تلقح الشجر"[٤].

٤- ريح جاءتهم في حال ينتظرون فيه نزول الخير عليهم. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ ﴾ [سورة الأحقاف:الآية ٢٤] .

"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نبيه ﷺ هود لقومه لما قالوا له عند رؤيتهم عارض العذاب قد عرض لهم في السماء هذا عارض ممطرنا نحيا به: ما هو بعارض غيث ولكنه

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٦٧٨، مرجع سابق.

(٢) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٨٩م، ج٣، ص١٨٥٥.

(٣) المصدر ذاته، ج٣، ص١٨٥٥.

(٤) جامع البيان، الطبري، ج١١، ص٤٦٨، مصدر سابق.

المبحث الثالث

علاج الجهل في القرآن الكريم

المبحث الثالث: علاج الجهل، في القرآن الكريم:

عالج القران الكريم الجهل ووجوده في المجتمعات لأنه اعتبره آفة تقضي على ازدهار الحياة الانسانيه وتجر لها الهلاك، وذلك من خلال اساليب متعددة: :

أولاً: دعوة القرآن الكريم الناس إلى توحيد الله

إن دعوة القرآن الكريم الإنسان إلى التوحيد دعوة واسعة جداً، فتوحيد الله تعالى والإيمان به أمر مركوز في النفس البشرية منذ أن خلقت، قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٣٨]، إلا أن البشر انحرفوا عن هذا التوحيد فمنهم من أنكر وجود الله تعالى من الأساس. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الجاثية:الآية ٢٤]وهذا انكار منهم للاخره وتكذيب للبعث وابطال للجزاء"[١]، ومنهم من أشرك مع الله إلهاً آخر قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [سورة الزمر:الآية ٣] " قال قتادة " كانوا اذا قيل لهم من ربكم وخالقكم، ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا الله، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده"[٢] ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢١٣]

وهم بذلك خرجوا عن الفطرة الربانية التي فطروا عليها، فالبشر كلهم كانوا وحدة واحدةً من حيث المنهج والعقيدة، كانوا على التوحيد منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام.

---

(١) القرطبي، الجامع لاحكام القران، ج١٦،ص١٧٠،مصدر سابق.
(٢) المصدر ذاته، ج١٥،ص٢٣٣.

ولما كان ذلك الانحراف أرسل الله تعالى الرسل عليهم السلام ليبصروهم ويدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وهو ما فطره الله تعالى في نفوسهم رغم إنكارهم، قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:الآية ٦١] أي " ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله : من خلق السماوات والأرض فسواهن وسخر الشمس والقمر يجريان دائبين لمصالح خلقه؟ ليقولن الذي خلق ذلك وفعله هو الله، فكيف يصرفون عن توحيده واخلاص العبادة له بعد اقرارهم بأنه خلق كل ذلك"(١)

وقد حاجج الرسل الكفار المنكرين والمشركين في دعوتهم تلك حتى ينقذوا الناس من عالم الجهل ويعملوا على إرساء أنظمة الحياة كلها على قاعدة التوحيد من خلال ما يحملون من شريعة ربانية، وقد كانت دعوة التوحيد دعوة الأنبياء جميعا لذا كان أساسا من أسس الإيمان بالله تعالى أن نؤمن بالأنبياء والرسل جميعا. قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [سورة النساء:الآيتان ١٦٣-١٦٤] " دلت الآيات على أن الوصى جنس واحد فمن آمن بالنبوات أو آمن بنبي وجب عليه الايمان بباقي الأنبياء"(٢) .

وقد قام أنبياء الله ورسله عليهم السلام برفع الجهل الجاثم على أنفاس الأمم من خلال تبصيرهم بالله تعالى، فقد سيطر الجهل على الحياة وجعل كل الأمم لا تخطو خطوة إلا حملت

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج٧، ص٢٥٢، مرجع سابق.
(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٦، ص ٣٧، مرجع سابق.

الكثير من الشقاء والتعاسة، لذلك كان دين الله هو دين الحق الذي يحمل في طياته سعادة الأمـــم وبناء الحضارة المزدهرة الوضاءة.

لقد حملت دعوة الرسل للتوحيد الكثير من الحُجج والبراهين الدامغة الدالة على الوحدانية وكان لكل منهم أسلوبه الخاص الملائم لأمته في الدعوة وعانى ما عانى من جهلـــهم وعنـــادهم ومن الأنبياء الذين سطر السياق القرآني حججهم في دعوتهم للتوحيد سيدنا إبراهيم عليه الســـلام الذي قدم لقومه الحجة الدامغة الباهرة في محاولته إزاحة ستار الجهل عن أعين قومه. قال تعالى :﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام:الآيـات ٧٦-٧٨]. "إنه ﷺ أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب ألا أنه عليه السلام كان قد عرف تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق يستدرجهم إلى استماع الحجة"(١).

"إن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ولم يقل على نفسه﴾(٢).

ويلتقي خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ مع أبي الأنبياء ســيدنا إبراهيــم عليـــه السلام في إقامة الحجج والأدلة على دعوة التوحيد لرفع الجهل عن البشر وإنارة دروبهم بـــالخير والسناء فكانا من أولي العزم من الرسل، قال تعـــالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٥، ص٤١، مصدر سابق.
(٢) المصدر ذاته، ج٥، ص٤١ (بتصرف).

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:الآية ٢٢] ، فالسماوات والأرض "لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي فطرهما لفسدتا"(١).

الآيات القرآنية في دعوتها حملت الكثير من الأدلة القويه التي تجعل العقل ينتمي يوّحيد مولاه الحق، وكل أمة تخلص في توحيدها لله تعالى تبني حضارة قوية يتعاون فيها الجانبين المادي والمعنوي فلا يطغى أحدهما على الآخر، فالتوحيد هو الضامن الوحيد لإنقاذ الأمم وحضاراتها من ضلال الجهل والهلاك.

وقد اعتنى القران الكريم بتصوير الأمم الكافرة وبيّن أنهم عاجزون فوبخهم على ما صدر منهم وكبتهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة الحج:الآيتان ٧٣-٧٤] .

"وفي ذلك إيماء إلى أنهم قد بلغوا غاية الجهالة وأشركوا بالله القادر على كل شيء، آلهتهم من الأصنام والأوثان التي لا تقدر على خلق أحقر المخلوقات وأصغرها وهو الذباب ولو أجتمعت له ولا تستطيع أن تنتصر منه لو سلبها شيئاً، وقد وصف سبحانه هذه الآلهة بما وصف للدلالة على مهانتها وضعفها، تقريعاً منه لعبدتها"(٢).

إن إخلاص التوحيد لله تعالى يقضي على الجهل ويجعل الحق والهدى يحل محله، فيعلم المرء "إن السماوات والأرض لها رب يكلؤهما برعايته، ويرعى من فيها بعنايته، فيرزقهم ويربيهم ويعلمهم بأن ليس في هذا الكون شيء يقوم بنفسه"(٣).

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص١١١، مصدر سابق.
(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٦، ص٢٦٠-٢٦١، مرجع سابق.
(٣) قحطان الدوري ورشدي عليان، أصول الدين الإسلامي، ط١، دار الفكر، الأردن، ١٩٩٦م، ص١٢٢.

ثانياً: دعوة القرآن الكريم إلى الفضائل

اتخذ القرآن الكريم في علاج الجهل كونه سبباً من أسباب هلاك الأمم أسلوباً منبعثاً عن الدعوة إلى توحيد الله وملازماً لها، وهذا الأسلوب يتمثل في الدعوة إلى الفضائل في كل نواحي الحياة، وأساس هذه الفضائل العلم.

أولى القرآن الكريم العلم اهتماماً خاصاً وقد "حمّل الإسلام الناس رسالة العلم فحث على التعلم والتعليم ومجّد العلماء ورفع منزلتهم بين الناس، ووعد طالبي العلم بالأجر العظيم وجعل مجالس العلم أفضل من مجالس العبادة، وحصر الخشية من الله بالعلماء واستخدم كل وسيلة ميسرة للمسلمين لنشر العلم بينهم وحث على متابعة البحث العلمي في مختلف المجالات الممكنة، الفكرية والتجريبية في آفاق السماء، وفي بطون الأرض وفي أغوار الأنفس بشكل ليس له نظير"(١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [سورة فاطر:الآية ٢٨] .

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة المجادلة:الآية ١١] .

كما أولى القرآن اهتماماً خاصاً بعفة المجتمع المسلم، وعمل على سن التشريعات لتحقيق ذلك، فمنع الفواحش وحرمها كلها كالزنا، وهي جريمة تشيع عندما يشيع الجهل، والأمم في هذا العصر تعاني من ذلك وتتعامل مع الزنا لكونه مشكلة واسعة النطاق ومتعددة الآثار، وقد عالج القرآن هذه المشكلة فكانت العقوبة جزءاً من هذا العلاج متمثلة في قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة النور:الآية٢] .

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة، أسس الحضارة الإنسانية ووسائلها، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢٨٣-٢٨٤.

بالإضافة إلى التدابير الوقائية لتضييق وجود هذه المشكلة، كغض البصر والحث على الزواج ونهي النساء من إبداء الزينة " ليطهر المجتمع الاسلامي من آثارها ويبعد عنه عوامل الفتنة ودواعي الغوايه ويرفع آدابه وتصوراته ومشاعره وذوقه" [١]. قال تعالى ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [سورة الأحزاب:الآية ٣٣] .

وقد حرّم القرآن شرب الخمر - الذي تعتبره الأمم تقليداً في حياتها - وذلك لتحقيق عفة الأمة والمحافظة عليها من شيوع المنكرات فيها بفعل الجهل. قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة المائدة:الآيتان ٩٠-٩١] .

وسعى القرآن الكريم إلى محاربة الجهل في المعاملات بين الناس فمثلاً منع الربا وحرّمه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٣٠] .

ومنع التطفيف الذي يسود في الأمم الجاهلة ودعا إلى الوفاء بالكيل والميزان. ويقال طفف الكيل أي : قلل نصيب المكيل له في ايفائه واستيفائه[٢]". قال تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة المطففين:الآيات ١-٣] .

---

(١) محمد الريشهري، العقل والجهل في الكتاب والسنة، ط١، دار الحديث للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م/١٤٢١هـ، ص١٧١-١٧٢.

(٢) الحسين الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القرآن، ص٣١٤، مصدر سابق.

ومما سبق يظهر مدى اهتمام القران الكريم بعلاج الجهل على اعتبار انه سبب اساســـي في هلاك الأمم.

الفصل الثالث

الترف وأثره في هلاك الأمم

المبحث الأول

بيان مفهومِ الترف

المبحث الأول: بيان مفهوم الترف

ورد أمر الترف في القرآن الكريم باعتباره سبباً خطيراً يؤدي إلى هلاك الأمم وتقويض حضارتها، فهو مرض إن فشا كثرت مخاطره وصعب علاجه، لذلك حذر القرآن الكريم منه فذكر لنا أمماً هلكت بسببه كأمة سبأ وغيرها، وقد وردت مادة "الترف" بمشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم سبع مرات في سور مكية لأنها هي التي تحدثت عن قصص الأمم السابقة وهذه السور هي: هود والإسراء والأنبياء وسبأ والزخرف والواقعة.

والترف لغة: "التنعم، والترفةُ: النعمة، والتتريف: حسن الغذاء، وترف الرجل: تنعم، وأترفه الله: أذاقه النعمة، وأترفته النعمة: إذا أبطرته وأفسدته"(١).

أما في الاصطلاح: فأصله "التوسع في النعمة"(٢)، فالمترف يتوسع في التمتع بملذات الدنيا وشهواتها، وإذا أصابته مع ذلك الدهشة والعلو فعند ذلك يصبح بطراً والبطر هو "دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة: وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها"(٣).

فكل مترف يكون قد دخل دائرة "البطر والغطرسة والتجبر الناتج عن الإسراف في الإنفاق والتنعم الزائد بالمال والإغراق في الشهوات والإقبال على ما حرم الله تعالى"(٤).

إن الله تبارك وتعالى أباح للإنسان التمتع بما في هذه الدنيا من ملذات ونعم، ولكنه جعل لذلك حدوداً يجب ألا يتعداها الإنسان حتى لا ينحرف عن طريق الحق والدين، فقد خلقه الله تعالى وأركز في نفسه غريزة حب الخير وحب المال، قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص١٧، مصدر سابق.
وانظر * محمد إسماعيل إبراهيم، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، ص٨٥.
(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٠، مصدر سابق.
(٣) المصدر ذاته، ص٤٨.
(٤) عارف أبو عيد ورفاقه، النظم الإسلامية، ط١، وزارة التربية والتعليم، ص١٣٦.

جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الفجر:الآية ٢٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة العاديات:الآية ٨] .

كما يعتبر المال مقوّماً من مقومات الحياة لدى الأمم لما له من أهمية كبيرة تدفع إلى العناية به والاهتمام بشأنه والمحافظة عليه وعدم إضاعته، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ [سورة النساء:الآية ٥] .

فالمال وسيلة لتقوية الأمم تحفظ به وجودها وتحمي به حضاراتها لما له من تأثير قوي يجعل الأمم تتصارع لأجله وفي سبيله.

قال ابن كثير "ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها"(١).

وكان للإسلام موقفاً خاصاً تجاه المال راعى فيه غريزة حب المال لدى الإنسان وهي غريزة قوية "تعتبر من أقوى الغرائز الإنسانية وأصلها، ولا تكاد تدانيها غريزة أخرى غير غريزة البقاء، بل أن البقاء والتملك ليكادان يكونان غريزة واحدة، إذ لا بقاء للإنسان بغير شيء يملكه، فالرغبة في التملك هي سر الحركة في الحياة، وهي الموجِّه لهذا النشاط في كل ميادين العمل والإنتاج، فلو خمدت هذه الرغبة في أي كائن، لما سعى، ولما عمل، ويجمد في مكانه مع الجماد ينتظر الموت"(٢).

وقد عمد القرآن إلى تهذيب هذه الغريزة بتوضيح شأن المال، فرغم أنه مقوم أساسي في الحياة يسعد البشرية ويجر إليها الخير من كل الاتجاهات، إلا أنه قد يجر إليها الويلات ويهلكها كما هلكت به أمم سابقة أخبر عن هلاكها القرآن الكريم، إذ قدسته وصار لها معبوداً من دون الله تعالى.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٢١٤، مصدر سابق.
(٢) شوقي عبده الساهي، المال وطرق استثماره في الإسلام، دار الفتح للإعلام العربي، ص٢٥ (بتصرف يسير).

ولهذا أباح القرآن الملكية للإنسان واهتم بها وجعلها حقاً قائماً له يباشره بالطرق المشروعة التي أباحها الله تعالى ولا يجوز تعديها إلى طرق محرمة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الملك:الآية ١٥] .

وقد جعل الله الأرض ميسرة مذللة "حتى ينتفع الخلق بكل ما فيها، فانقياد الأرض لبني آدم ظاهر الوضوح، وخاصة في هذه الأيام حيث لم يدع الخلق ضرباً من ضروب الانتفاع إلا سلكوه"(١).

لكن المترفين تستوي لديهم الطرق المباحة والطرق المحرَّمة في الكسب، فيرون أن الإرث والوصية والعمل والهدية وغيرها من الطرق المباحه تتساوى مع الربا والسرقة والميسر والغش والاختلاس... الخ، فيرون أن كلها طرق لكسب المال حتى يشبعوا غرائزهم.

وهذا الوضع يُحذر منه القرآن الكريم ويتوعد المترفين الذين يشغلهم المال والخيرات والملذات والشهوات عن الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة المنافقون:الآية ٩] . "يا أيها المؤمنون المصدقون بالله تعالى ورسوله ﷺ لا تشغلكم الأموال وتدبيرها والأولاد والعناية بشؤونهما عن القيام بذكر الله تعالى"(٢).

والخطاب في هذه الآية موجه للمؤمنين محذراً إياهم من ذلك، أما غيرهم فمن باب أولى أن يشملهم هذا التحذير والوعيد.

يجب أن لا يعطي الإنسان ملذات الدنيا وشهواتها أكثر مما تستحق، فهي زينة للدنيا ليس أكثر لذا يجب أن يكون الإنسان زاهداً فيها وليس راكضاً لاهثاً وراءها. قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ

---

(١) محمد حجازي، التفسير الواضح، ط١٠، دار التفسير للطباعة والنشر، الزقازيق، ١٩٩٢م، ج٣، ص٧١٥.
(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٢٨، ص٢٢٩، مرجع سابق.

أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [سورة الحديد:الآية ٢٠] .

قال الرازي: "المقصود الأصلي من الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة، فقال: الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقرة، وأما الآخرة فهي عذاب شديد دائم أو رضوان الله على سبيل الدوام"(١).

وكم هي الصور القرآنية التي توضح للإنسان حقيقة هذه الحياة الدنيا، فرغم ما تحمل من خيرات ونعم فمصيرها إلى الزوال لذلك يجب أن يتنبه الإنسان إلى خطورة الترف فيبتعد عن دائرته، وعلى سبيل المثال انظر إلى هذا المثل محذراً من الدنيا والاغترار بملذاتها. قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة الكهف:الآية ٤٥] .

ولذلك حرّم الله تعالى حياة الترف فهي تؤدي إلى كفر النعمة والبطر وبالتالي هلاك الأمة وتدميرها. قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء:الآية ١٦] .

"فالمترفون في كل أمة هم طبقة من الكبراء المنعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجون، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم، عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوا وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها، والآية تقرر سنة الله هذه فإذا

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج١٠، ص٤٦١، مصدر سابق.

قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها المترفون فلم تدافعهم ولم تضـرب على أيديهم سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت، فحقت عليـها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك"(١).

إنها سنن الله الباقية الثابتة لا تتغير بتغير الأزمان والأماكن، فالترف يجر الأمـم إلـى الهلاك في الدنيا ويجعلها من أصحاب الشمال في الآخرة. قال تعـالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة الواقعة:الآيات ٤١-٤٥] .

فالمترفون "كانوا يتمتعون بوافر النعم وجزيل المنن، وهم مع ذلك أصروا على كفرانـهم ولم يشكروا أنعم الله عليهم، فاستحقوا عقاب ربهم، وكانوا مكذبين بهذا اليوم مستبعدين وقوعـه، وركبوا رؤوسهم فلم يلووا على شيء وهاموا في أودية الضلاله، وساروا في سبيل الغوايـة، لا رقيب ولا حسيب، وقد جرت سنة القرآن أن يذكر أسباب العقاب ولا يذكر أسباب الثـواب، لأن الثواب فضل والعقاب عدل، والفضل أن ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقـص ولا ظلم، أما العدل فإن لم يعلم سببه فربما يظن أنه حزب من الظلم"(٢).

كما وصفت سورة المؤمنين حال الأمم المترفة عندما يصيبها العذاب. قـال تعـالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:الآيتان ٦٤-٦٥] .

قال ابن كثير: "حتى إذا جاء مترفيهم وهم السعداء المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسـه، ونقمته بهم "إذا هم يجأرون" أي يصرخون ويستغيثون"(٣).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٢١٧-٢٢١٨، مرجع سابق.
(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٩، ص٤٠٧، مرجع سابق.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٤٨٣.

والأمم المترفة لا تهتم إلا بالمظاهر المادية ولا يشغلها الاهتمام بمصالح النـــاس، فـــهي مشغولة بالشهوات والملذات فعندما "تبدأ بالتمتع بالترف والثراء الذي حصلت عليه يؤدي ذلـــك إلى ميوعة الشعب وضعف نفسيته ونمو الأثرة عنده وكثرة الفساد فيه، فتفقد الأمة بذلــك أكـــبر مصادر قوتها وتماسكها"(١).

قال تعـالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة هود:الآية ١١٦] .

قال محمد رشيد رضا: "فهلا كان أي وجد من أولئك الأقوام الذين أهلكنـــاهم بظلمـــهم وفسادهم في الأرض جماعة أصحاب بقية من النهى والرأي والصلاح ينهونهم عن الفساد فـــي الأرض وهو الظلم واتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحول نهيـــهم إياهم دون هلاكهم، فإن من سنتنا ألا نهلك قوما إلا إذا عم الفساد"(٢).

كما حذر النبي ﷺ من الترف لخطورته في أكثر من مناسبة، فقد نهى عن لبس الحريـــر والديباج للرجال كما نهى عن الشرب في آنية الذهب والفضة والأكل فيها ولا شك أن من يفعـــل ذلك هم المترفون، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: "نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنيـــة الذهـــب والفضة وأن نأكل فيها وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه"(٣).

كما نهى النبي ﷺ أن يكون الإنسان عبدا لشهواته وملذاته فعن النبي ﷺ قال: "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي منها رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش..."(٤).

---

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة، الخطايا في نظر الإسلام، ط١، ١٩٧٦م، ص١٥٨.
(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١٢، ص١٤٨، مرجع سابق.
(٣) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب أفتراش الحرير، رقم (٥٨٣٧)،ص١١٤٠.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسه في الغزو فـــي سـبيل الله رقـم(٢٨٢٧)و(٢٨٨٦)، ص٥٥٥.

وما شاع الترف في أمة إلا كان نذيرا بإهلاك الله إياها، وهو لا ينشأ طفرة في الأمم وإنما ينشأ كأي مرض اجتماعي آخر تدريجيا "فالانحراف حين يبدأ يكون أول الأمر انحرافا يسيرا، وقد يكون حسن النية منشؤه الضعف عن حمل التكاليف، وقد يكون انحرافا سيء النية كانحراف المنافقين الذين ينتظرون الفرصة ليهدموا الإسلام ولكنه في هذا وذاك انحرافا يسيرا لا يجرؤ أهله على المجاهرة به ثم يزداد خط الانحراف ويرين على النفوس ما يجعلها تزداد بعدا فتمسح هذه النفوس فلا تبصر النور وعندئذ يبدأ الفساد في الأرض ويتأهب الشر والطغيان ثم تزداد الشقة اتساعا وتزداد النفوس ضراوة على الفساد"(١).

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى خطورة الترف وحذر منه باعتباره مقوضا للحضارات والأمم، ففي حالة الترف "تتجاوز الأمة ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، وتنزع مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، وتتفاخر في ذلك وتفاخر فيه غيرها من الأمم في أكل الطيب، ولبس الأنيق وركوب الفاره ويناغي الخلف السلف في ذلك فيتلونون بمظاهر الترف والحضارة والسكون والدعة في جميع أحوالهم وينغمسون فيها، ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يبلغوا سنة الله في خلقه"(٢).

"والناظر في سقوط كثير من الأمم كالرومان والفرس، وكذا الناظر في سقوط الدولة العباسية، وفي ضياع الأندلس يرى أن من أهم أسباب سقوط الممالك والدول هو الترف"(٣).

والترف يعتبر أساسا في هلاك الأمم، فيجب أن لا تغض أي أمة الطرف عنه، بل تتوقف عنده وتحاول أن تعالجه منذ ظهوره، فكلما تقدمت مراحله وأصل لنفسه جذورا في حياة المجتمع زادت صعوبة العلاج منه والقضاء عليه.

---

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص٢٤٠، مرجع سابق.
(٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط١، لجنة البيان العربي، ج٢، ص٤٨٠-٤٨٤.
(٣) عفيف عبد الفتاح طبارة، الخطايا في نظر الإسلام، ص١٥٨، مرجع سابق.

وقد بين القران الكريم ذلك فساق لنا أخبار بعض المترفين الذين أهلكهم الله بسبب تفشي آفة الترف بينهم حتى خرجت عن حدود كونها ظاهرة فردية فأصبحت ظاهرة اجتماعية تعاني منها الأمة كلها. ومن هذه الأمم أمة سبأ التي علت بترفها وبطرت حتى أصبحت مثلا يضرب، وقد سمى القرآن الكريم سورة كاملة باسم هذه الأمة حتى تأخذ الأمم العبرة من المصير الذي أصابهم.

قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة سبأ:الآيات ١٥-١٩] .

قال ابن كثير: "كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس – صاحبة سليمان – منهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل لتأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر"(١).

"وكان جديرا بهم أن يشكروا نعم الله وما رزقهم بالطاعة فضلا عن أن الرسل قالت لهم ذلك، فهذه أي مأرب بلدة طيبة، أي كثيرة الثمار معتدلة المناخ لطيفة الهواء بعيدة عن المؤذيات

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٥٠٤، مصدر سابق.

والمنعم بهذه النعم عليهم رب غفور يستر ذنوبهم، فجمع الله لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم"[١].

قال تعالى ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ [سورة سبأ:الآية ١٦] " أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس كما قال هدهد سليمان"[٢]: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة النمل:الآيات ٢٢-٢٤] .

وعاقبهم الله تعالى بسيل العرم، عن قتادة أنه قال: ﴿ذكر لنا أن سيل العرم واد كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتى، فسدوا ما بين الحبلين بالقير والحجارة، وجعلوا عليه أبوابا وكانوا يأخذون منه من مائة ما احتاجوا إليه، ويسدون عنهم ما لم يعنوا به من مائه شيئا﴾[٣].

"كما يبست أشجارهم المثمرة ونبت مكانها أشجار مره لا خير فيها من الخمط أي الإراك، والأثل: كما قال الفراء شجر شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا، والسدر وهو نوعان: نوع له ثمرعفص لا يؤكل وهو الذي يسمى الضال، ونوع ينبت على الماء وثمره النبق وورقة يشبه شجر العناب. وهذا التبديل من النعمة إلى النقمة جزاء كفرهم، ولا يعاقب بهذا إلا المبالغ في كفران النعمة والكفر بالله"[٤].

"ومن النعم على أهل سبأ جعل طرقاتهم وممراتهم التجارية بين اليمن والشام مأهولة لا تحتاج حمل ماء وزاد، فقد جعل لهم محطات يستريحون فيها بالقيلولة والمبيت وهي القرى الكثيرة على طول الطريق إلى الشام، كما أن تلك الطرق كانت آمنة غير مخوفة ليلا ونهارا، ولا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه إلا أنهم بطروا وطغوا وسئموا الراحة ولم

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٢٢، ص١٧٠، مرجع سابق.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٥٠٧، مصدر سابق.
(٣) الطبري، جامع البيان،ج١ ص٣٦٢، مصدر سابق.
(٤) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٢٢.ص١٧٠، مرجع سابق.

يصبروا على العافية فتمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة، فتبددوا في الدنيا وتفرقوا في البلاد وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون الازواد، وظلموا أنفسهم بكفرهم وأصبحوا مدار القصص والتحدث بأخبارهم وعبرة للمعتبر"(١).

قال ابن كثير "وكانوا من الغبطة والنعمة والعيش الهنيء الرغيد، والبلاد الرحبة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها عن بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [سورة سبأ:الآية ١٨] (٢).

"لقد بطر القوم معيشتهم فتنكبوا عن هذا الطريق الآمن المطمئن، إلى جهات بعيدة غير تلك الجهة التي ألفوها، وتبادلوا المنافع مع أهلها، وأغراهم الطمع فركبوا الأهوال والمخاطر، لا لحاجة إلا إن يرضوا هذا الغرور الذي ركبهم، إلا ليغذوا مشاعر الاستعلاء التي استولت عليهم"(٣).

إن سبأ عتت عن أمر ربها فوصلت قمم الترف فاستحقت بما اقترفت عذاب الله تعالى "فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق أي جعلهم حديثا للناس، وسمرا يتحدثون به عن خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا "تفرقوا أيدي سبأ" "وأيادي سبأ" و"تفرقوا شذر مذر"(٤).

ولابد لكل أمة فتح الله عليها أن تحرص ألا ترد موارد الترف فإن في سبأ عبرة لكل عاقل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة سبأ:الآية ١٩] .

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير،ج٢٢،ص١٧١، مرجع سابق.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٥٠٩، مصدر سابق.
(٣)عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٤، ص٨٠١، مرجع سابق.
(٤) ابن كثير، تفسير القران العظيم، مصدر سابق.

"أي عظة وعبرة ودلالة على واجب حق الله على عبده من الشكر على نعمه إذا أنعم عليه وحقه من الصبر على محنته إذا امتحنه ببلاء لكل صبار شكور على نعمه"[١].

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٠، ص٣٦٩، مصدر سابق.

المبحث الثاني

أسباب الترف ومظاهره في القرآن الكريم

المبحث الثاني: أسباب الترف ومظاهره في القرآن الكريم

يشكل الترف عاملاً هاماً في هلاك الأمم، متى توفرت اسبابه وعاشت الأمم مظاهره، حل بها العذاب الشديد وقد بين القرآن الكريم اسباب نشوئه في المجتمعات البشريه وهي:

أولاً: بسط الرزق وسعته

إن الرزق مكتوب عند الله تعالى وهو الرزاق لعباده وحده. قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الذاريات:الآيتان ٢٢-٢٣] .

نقل ابن عطية عن مجاهد المقصود "أن الرزق عند الله تعالى يأتي به كيف يشاء"[(١)].

فلابد أن يجد الإنسان ساعياً إلى رزقه، فلا يتواكل ويركد عن الحركة والنشاط والسعي في سبيل طلب الرزق حتى يقوم بالحقوق والواجبات اللازمة عليه نحو ربه ثم نفسه وأقاربه وأمته كلها. وقد جعل الله سبحانه تفاوت الرزق بين الناس سنة من سننه تعالى وذلك لعلم الله بما يصلح الناس ويهديهم ويعينهم على الطاعة خصوصاً أن النفس تميل إلى حب الدنيا وزهرتها ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون هذا الحب هو المقرر لخير الإنسان لأنه قد يحب شيئاً ويحمل هذا الحب في طياته الشر، وقد يكره شيئاً ويحمل هذا الكره في طياته الخير.

قال تعالى: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ١٩] .

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج١٤، ص١٧، مصدر سابق.

يقول القرطبي: "أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح فقد يعلم من حال عبد عنه لو بسط عليه -الرزق- قاده ذلك إلى الفساد فيزوي عنه الدنيا، مصلحة له فليس ضيق الرزق هواناً ولا سعة الرزق فضيلة"(١).

إن هذا التفاوت هام لأنه يعتبر ضرورة لعمارة الأرض، قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآية ٣٢] .

قال الشوكاني: "فبه – التفاوت في الرزق – تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا ويحتاج هذا إلى هذا، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا هذا"(٢).

ولو تساوى الناس في أرزاقهم لما أدى أحد من الناس عملاً، ولما استطاعت الأمة أن تقوم بأساسيات وجودها كالمأكل والملبس والتعليم وغيرها فتتوقف بذلك عجلة الحياة وتبعاً لذلك تتوقف عمارة الأرض لذا كانت سنة التفاوت في الأرزاق بين الناس.

إن الله تعالى في بسطه الرزق لبعض عباده لا يعني هذا تباعاً تكريماً لهم ورضاً عنهم وعندما يضيق الرزق على آخرين لا يعني دلالة على سخط الله ولحوق الإهانة به، وهذا المفهوم ينبغي أن يصحح في أذهان من يقول به.

---

(١) القرطبي، الجامع لاحكام القران، ج١٦،ص٢٨،مصدر سابق.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج٤، ص٧٢٤، مصدر سابق.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ ﴾ [سورة الفجر:الآيتان ١٥-١٦] .

قال ابن كثير: "يقول تعالى منكرا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [سورة المؤمنون:الآيتان ٥٥-٥٦] . وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله "كلا" أي ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المراد في ذلك طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإن كان فقيرا بأن يصبر"(١).

إن بسط الرزق يكون في كثير من الأحيان ابتلاء للإنسان، والابتلاء كما هو في المفهوم القرآني قد يكون بالخير كما هو بالشر بل أن ابتلاء الخير أصعب وأشد.

قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [سورة الأنبياء:الآية ٣٥] .

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٨٦] .

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص٣٩٨، مصدر سابق.

والابتلاء هو: "الاختبار، وإذا ابتلى الله إنسانا فلأجل ظهور جودة المبتلى ورداءته لتقوم الحجة عليه لأن الله عالم به، وإذا ابتلى إنسان إنسانا فلأجل أن يتعرف على حال المبتلى ويقف على ما يجهل من أمره"(١).

وقد حذر النبي ﷺ من الإبتلاء بكثرة المال والنعم لأنه قد يكون أشد من الابتلاء بالشر فكثيرا ما يؤدي إلى التنافس والتحاسد والتدابر والقطيعة، فعن عوف بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ "فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتلهيكم كما ألهتهم"(٢).

"إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير، كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان، وما يغريان من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع، إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينميها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة، لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء"(٣).

إن مفهوم الغنى الذي يبتلى به الإنسان أحيانا يختلف عن مفهوم الترف، فكل مترف غني وليس كل غني مترفا، فالقرآن الكريم ينظر إلى الغنى على أنه منة وفضل من الله تعالى، فقد أمتن الله على كثير من رسله وعباده الصالحين فملكوا من المال الكثير لكنهم لم يترفوا، فالتمتع بالمال له حد ينبغي الوقوف عنده وهذا الحد قرره القرآن الكريم أولا، ثم للعرف والعادات والبيئة

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٠، مصدر سابق.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ص١٢٣٤.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٣٧٧-٢٣٧٨ (باختصار)، مرجع سابق.

التي تحياها الأمة دور في ذلك، ومن الأغنياء الذين أوردهم القرآن الكريم فكانوا شاكرين لأنعم خالقهم سيدنا داوود وسيدنا سليمان عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النمل:الآيات ١٥-١٩] .

"عدد الله في القصة نعما ثلاثا على سليمان عليه السلام، هي تعليمه منطق الطير، وإيتاؤه الخير الكثير، وتسخير الجن والإنس والطير، وفهمه خطاب النملة، وأصوات الطيور والبهائم هو منطقها، ويبدأ سليمان عليه السلام في تعداد هذه النعم قائلا: "يا أيها الناس" وهذا تشهير لنعمة الله وتنويه بها واعتراف بمكانتها. وقد اشتمل دعاء سليمان عليه السلام على طلب الإلهام من الله على شكر ما أنعم به عليه، وعلى توفيقه لزيادة العمل الصالح والتقوى"[١].

هكذا يكون الغني مؤمنا بالله معترفا بفضله على عكس المترف المستعلي الجاحد لنعم خالقه ومولاه والذي يستحق بفعله الهلاك.

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٢٧، ص٢٧٨، مرجع سابق.

ثانيا: كنز المال وتجميد دوره في الحياة:

بين القرآن الكريم أن كنز المال أمرا خطيرا تركد به حياة الأمم وتأسن، لذلك توعد الله تعالى كل من يعطل هذه النعمة عن أداء دورها في الحياة، فهو سبحانه أنعم علينا بهذه النعمة وجعلها محركا أساسيا في الدنيا، ومن هذا المنطلق جاءت الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الجمعة:الآية ١٠] .

فلابد من تداول المال بين الناس حتى يسدوا حاجاتهم، ويعتبر هذا التداول عاملا هاما في استقرار الأمم واستقلالها.

والمترفون يرون أن كنز المال هو الضامن الذي من خلاله يستمرون في متابعة تمتعهم المجاوز لحدود الإسلام بملذات الدنيا وشهواتها، لذا نجدهم يحرصون على كنزه بمختلف الطرق وشتى الوسائل، وهم بذلك يعرضون أنفسهم وأمتهم للهلاك، فالترف في بدايته جرم فردي وفي نهايته جرم جماعي.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[سورة التوبة:الآيتان ٣٤-٣٥] .

إنها صورة حية تستثير كوامن النفس فتهز المشاعر وتقشعر الجلود لذلك العذاب. يقول سيد قطب: "السياق القرآني يصور عذابهم في الآخرة بما كنزوا وعذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله في مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة المروعة... ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣٤] إن رسم المشهد هكذا في تفصيل وعــرض مشــهد العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتها الأخيرة ليطيل المشهد في الخيال والحس.. وهي إطالة مقصــــودة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣٤]. ويسكت السياق وتنتهي الآية عند هــذا الإجمال والإبهام في العذاب ثم يأخذ بالتفصيل بعد الإجمــال ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣٥] وينتظر السامع عملية الإحماء! ثم هاهي ذي حميت واحمرت وهاهي ذي معدة فليبدأ العذاب الأليم.. هاهي ذي الجباه تكوى.. لقد انتهت عملية الكي في الجباه فليــداروا على الجنوب.. هاهي ذي الجنوب تكوى.. لقد انتهت هذه فليداروا على الظــهور.. هــاهي ذي الظهور تكوى.. لقد انتهى هذا اللون من العذاب، فليتبعه الترذيل والتــأنيب: ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣٥] هذا هو بذاته الذي كنزتموه للذة فانقلب أداة لهذا اللون الأليــم من العذاب! ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣٥] ذوقوه بذاته فهو الذي تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه!

ألا إنه لمشهد مفزع مروع يعرض في تفصيل وتطويل وأناة!"(١).

إن القرآن الكريم ينكر أن يكون المال دولة بين الأغنياء لأن هذا يؤدي إلى عظم الـثروة وتضخمها بين أيديهم وبالتالي يسوقهم إلى الترف. قـــال تعـــالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [سورة الحشر:الآية ٧] .

قال الرازي: "قال المبرد: والدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم يكون كــذا مــرة وكذا مرة، والدولة بالفتح انتقال حال سارة إلى قوم عن قوم، فالدولة بالضم اسم مــــا يتــداول،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص١٦٤٥-١٦٤٦، مرجع سابق.

وبالفتح مصدر من هذا، ويستعمل في الحالة السارة التي تحدث للإنسان فيقال: هذه دولة فـــلان أي تداوله، فالدولة اسم لما يتداول من المال والدولة اسم لما ينتقل من الحال"(١).

وضرب لنا القرآن مثلا أصحاب الجنة الذين أرادوا كنز النعـــم التـــي يجنونـــها مـــن البساتين ويمنعون تأدية حقوق الله فيها جاعلين الترف والبخل هدفا يريدون تحقيقه، فعاقبـــهم الله بهلاك تلك النعمة عنهم.

قال تعـــالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة القلم:الآيات ١٧-٣٣] .

إن أصحاب الجنة تواصوا فيما بينهم أن يجنوا ثمر بستانهم مبكرين في الصباح حتـى لا يعلم الفقراء والمساكين وكانوا قد اعتادوا على وصول صدقات هذا البستان إليهم في عهد أبيـهم، فدخل الجشع في نفوسهم، وأرادوا الاستحواذ على كل ثمار البستان، وظنوا أنهم قادرون علـــى ذلك، فطرقها بلاء عظيم من الله سبحانه وتعالى فأهلك الثمر كله.

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج١٠، ص٥٠٧، مصدر سابق.

قال ابن كثير: "حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلا لئلا يعلم بها فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله عز وجل، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق"(١).

ثالثا: إيثار الدنيا على الآخرة :

"إن استحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان ويتعارض مع الاستقامة على الصراط، وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة، لأنه عندئذ تصلح الدنيا ويصبح المتاع بها معتدلا ويراعى فيه وجه الله، فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة"(٢).

وهذا الاعتدال مفقود عند المترفين مما يدفعهم إلى الدنيا وما فيها رغم التحذيرات الربانية من إيثارها وتقديمها على الحياة الآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٨٥]

.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة النحل:الآية ١٠٧] .

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:الآية ٣] .

قال الرازي: "إن الإنسان قد يحب الشيء ولكنه لا يحب كونه محبا لذلك الشيء، مثل من يميل طبعه إلى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محبا لهما. أما إذا أحب الشيء وطلبه كونه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص١٩٦، مصدر سابق.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٠٨٦، مرجع سابق.

محبا له، وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [سورة إبراهيم:الآية ٣] يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية، ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا كان غافلا عن الحياة الآخروية، وعن معايب هذه الحياة العاجلة. ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب"[١].

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٤] .

وقد أشار الرازي إلى وجوه الاستمتاع بمتاع الدنيا:

"أ: منها ان ينفرد به من خصه الله تعالى بهذه النعم فيكون مذموما.

ب: ومنها أن يترك الانتفاع به مع الحاجة إليه فيكون أيضا مذموما.

جـ. ومنها أن ينتفع به في وجه مباح من غير أن يتوصل به بذلك إلى مصالح الآخرة وذلك لا ممدوح ولا مذموم.

د. ومنها أن ينتفع به على وجه يتوصل به إلى مصالح الآخرة وذلك هو الممدوح.

﴿والله عنده حسن المآب﴾ والمقصود من هذا الكلام بيان أن من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها إلى ما يكون فيه عمارة لمعاده ويتوصل بها إلى سعادة آخرته، ثم لما كان الغرض الترغيب في المآب وصف المآب بالحسن"[٢].

"إن الاستغراق في شهوات الدنيا ورغائب النفوس ودوافع الميول الفطرية هو الذي يشغل القلب عن التبصر والاعتبار، ويدفع بالناس إلى الغرق في لجة اللذائذ القريبة المحسوسة،

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٧، ص٦٠-٦١، مصدر سابق.
(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٣، ص١٦٣، مصدر سابق.

ويحجب عنهم ما هو أرفع وأعلى، أو يغلظ الحس فيحرمه متعة التطلع إلى ما وراء اللذة القريبة ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم في هذه الأرض، واللائقة كذلك بمخلـــوق يستخلفه الله في هذا الملك العريض"[١].

وعندما تتوفر اسباب الترف وتتركز في حياة الأمم تبرز مخاطر عديدة يعـــــاني منـــها الناس وهي:

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٣٧٣، مرجع سابق.

أولاً: الإسراع في تكذيب الأنبياء:

أهتم القرآن الكريم ببيان أن المترفين هم الذين يتصدون لدعوة الأنبياء فيقفون موقف الصدود والعدوان والظلم وينفرون الناس من دعوة الحق، فهم المنغمسون في شهوات الدنيا وملذاتها ودعوة الأنبياء إنما هي محاربة لتقديس الدنيا وإيثارها على الآخرة.

فالله سبحانه وتعالى يرسل الرسل إلى الناس رحمة وكرماً وتفضلاً يدعونهم إلى دين الحق ويبينونه لهم، وتقوم بذلك الحجة الدامغة على العباد، فقد جاءهم من يبشرهم وينذرهم فإذا عصوا فإن الله ليس بظلام للعبيد.

قال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة النساء:الآية ١٦٥].

قال ابن كثير: "إنه تعالى لما أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمقذر عذر"[(١)].

ورغم ذلك بيّن السياق القرآني في حديثه عن الأمم الهالكة تكذيبها لرسلها رافضة دعوة التوحيد مع أن الرسل يمثلون أنقى الناس وأصفاهم سريرة وأكثرهم أمانة لهذا خصهم الله بهذه المهمة العظيمة، إلا أنهم جوبهوا بالتكذيب والنكران، وهذه ظاهرة في جميع الأمم التي أرسل الله إليها الرسل فلابد من وجود مكذبين تتعارض مصالحهم مع دعوة الرسل.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:الآية ٤٤] . فيالروعة الكلمات القرآنية وجل قائلها، إنها تصف بدقة متناهية، وعنفوان يهز المشاعر تجاه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٧٥، مصدر سابق.

هؤلاء المكذبين الذي أصبحت ترد أخبارهم مورد العبرة والعظة مما أصابهم وما آلوا إليه ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المؤمنون:الآية ٤٤] .

قال الآلوسي: "أتبعنا بعضهم بعضاً في الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضاً في مباشرة سببه وهو تكذيب الرسول"(١).

إن تكذيب الرسل جريمة منكرة تصدى لها المترفون في كل أمة، فهاهم قوم سيدنا نوح عليه السلام كذبوا نوحاً فوصفهم القرآن بأنهم كذبوا جميع الرسل باعتبار وحدة الدعوة والرسالة. قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ [سورة الفرقان:الآية ٣٧] .

وكذلك قوم شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الشعراء:الآية ١٧٦] ، فكل أمة كذبت رسولها تكون قد كذبت الرسل جميعهم، والمترفون هم دائماً حملة لواء التكذيب في الأمم. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة سبأ:الآية ٣٤] . قال ابن جزي "يعني أهل الغنى والتنعم في الدنيا وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء"(٢).

والمترفون يشكلون الملأ في كل قوم يدفعهم ويأزهم ترفهم إلى سرعة التكذيب خوفاً على تمتعهم بالدنيا، فقالوا لسيدنا شعيب عليه السلام ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٨٨] . وقالوا لسيدنا صالح عليه السلام ومن آمن معه ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٧٦] .

---

(١) شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني، ج١٨، ص٣٢٣.، مصدر سابق

(٢) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تفسير ابن جزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ص٥٧٦.

وقد كان تكذيبهم للأنبياء بأسلوب صريح ومباشر فقالوا لسيدنا نوح ولمن آمن معه ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [سورة هود:الآية ٢٧] ، وقالوا لسيدنا شعيب عليه السلام ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [سورة الشعراء:الآية ١٨٦] . وأحياناً أخرى اتهموهم بالسفاهة كما اتهموا سيدنا هوداً عليه السلام ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٦٦] . والسفاهة تعني "خفة العقل وسخافته"(١).

واتهموا بعض الرسل بالضلال كسيدنا نوح عليه السلام ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٦٠] .

وكثيراً ما اتهموا الرسل بالسحر والجنون، فسيدنا نوح اتهم بالجنون، ﴿ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [سورة القمر:الآية ٩] ، وسيدنا هود اتهمه قومه بالجنون ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [سورة هود:الآية ٥٤] ، واتهموا سيدنا شعيب عليه السلام بالسحر فقالوا: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [سورة الشعراء:الآية ١٥٣] . "أي قد أصبت بسحر ففسد عقلك فصرت لا تدري ما تقول وهو بمعنى لمسحورين والمراد سحرت مرة بعد مرة"(٢).

كما اتهم الملأ من قريش وهم يمثلون الطبقة المترفة فيها سيدنا محمد ﷺ بالسحر والجنون كأسلافهم، قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [سورة الذاريات:الآيتان ٥٢-٥٣] .

"فالمترفون حرصا على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة، حرصاء على شهواتهم ولذائذهم، حرصاء أن تكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم، والهدى والدين والإيمان يحرمهم

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص١١٠، مصدر سابق.
(٢) أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، مجمع البيان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ج٧، ص٢٧٦.

الكثير مما يحرصون عليه، ويحدد لهم سبل المتاع المباح وهو بالقياس إليهم قليل ضئيل لا يرضى مرض نفوسهم وترهل شهواتهم"(١). لذلك هم يرفضون كل دعوة لله سبحانه لأنها تحمل حرباً على الفساد تجعلهم يتنازلون عن بعض مما يتمتعون به من نعيم.

ثانياً: شيوع الربا:

إن شيوع التعامل بالربا نتيجة حتمية لآفة الترف، فالترف يبني في نفوس أصحابه حب التمتع بالدنيا وزهرتها تمتعاً ليس يحده حد، فهو يغري أصحاب الأموال بأن لا يستغلوها فتصبح نعمة المال محتكرة لديهم حتى يضمنوا استمرارية ترفهم.

"ولخطورة الربا حرمه الله في جميع الأديان السماوية، وذلك لأنه يؤدي إلى خلق طبقة مترفة لا تعمل شيئاً وإنما تربح وتستغل وغيرها يكد ويعطيها جهده مما يؤدي إلى تضخم الأموال في أيدي هذه الطبقة المترفة دون جهد"(٢).

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآيتان ٢٧٨-٢٧٩] .

"إنها حرب معلنة – كما قال أصدق القائلين – على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي، هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة وهي حرب على الأعصاب والقلوب، وهي حرب على البركة والرخاء وهي حرب على السعادة والطمأنينة، حرب يُسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض، حرب المطاردة والمشاكسة، حرب الفتن والظلم، حرب الخوف والقلق، وأخيراً حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول، الحرب الساخنة

(١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الكتاب العربي، ص١٣٠.

(٢) أبو سريع محمد عبد الهادي، الربا والقرض في الفقه الإسلامي دراسة فقهية مقارنة بالأوضاع الاقتصادية المعاصرة، دار الاعتصام، ص٥-٦.

الماحقة، التي تقوم وتنشأ من جرّاء النظام الربوي المقيت، فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر"(١).

ويبلغ القرآن في تفظيع أمر الربا إلى حد تصوير آكله بأنه يقوم إلى الله يوم القيامة كما يقوم الممسوس المتخبط الذي أصابته لوثة في عقله لا يدري ما يفعل.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [سورة البقرة:الآيتان ٢٧٥-٢٧٦] .

فقد وصف السياق المرابي بالكفر والإثم "فالمرابي لم يرض بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل"(٢).

وقد اعتبرت السنة النبوية الشريفة الربا من المهلكات للأفراد والأمم، قال رسول الله ﷺ" "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله ما هن؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"(٣).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٣٣١، مرجع سابق.
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج١، ص٧١٥، مصدر سابق.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، رقم(٦٨٥٧)،ص١٣٠٧-١٣٠٨.

فقد جعله النبي ﷺ – في مرتبة تلي القتل للدلالة على خطورته، وتفظيع أمره، وقد لعن ﷺ كل من يشارك في المعاملات الربوية من بعيد أو قريب، قال جابر رضي الله عنه "لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده، وقال: هم سواء"(١).

وكم ذاقت البشرية من شقاء بسبب الربا وما زالت فقد ذم سبحانه وتعالى اليهود بما ارتكبوا من أفعال سيئة ومنها التعامل بالربا، فهم سادة الأمم في مثل هذه المعاملات. قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [سورة النساء:الآيتان ١٦٠-١٦١] .

وهذه الآية تحمل تحذيراً للأمة المسلمة من مشابهة اليهود في تلك الأفعال التي استحقوا بها العقاب من الله تعالى؛ فقد انتشر في أمتهم الحقد والبغض والكراهية فانقطعت أواصر المحبة والرحمة وتلاشى وجودها.

"فالربا وسيلة لتضخيم رؤوس الأموال تضخيماً شديداً، لا يقوم على الجهد، ولا ينشأ عن العمل، مما يجعل طائفة من القاعدين يعتمدون على هذه الوسيلة وحدها في تنمية أموالهم وتضخيمها فيشيع بينهم الترهل والترف على حساب الكادحين الذين يحتاجون للمال فيأخذونه بالربا في ساعة العسرة"(٢).

ومما يثير الدهشة ما وصلت إليه العلوم الاقتصادية والمصرفية من تطور في حدود القواعد القرآنية للاقتصاد ورغم ذلك نرى إصراراً في ارتكاب هذه المعصية من المسلمين أيضاً مما يعرضهم لمحق السعادة في أمتهم وتعطيل نموها وتطورها المتوازن.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساقاه، باب لعن آكل الربا ومؤكله، رقم(١٥٩٨)،ص٦٢٠.

(٢) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص١٢٤.

ثالثاً: الطغيان والتجبر

عندما يسود الترف في أمة ما تظهر الطبقية المقيتة، فهناك الطبقة الفقيرة الضعيفة وهناك المترفون المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة فاعترتهم الدهشة فطغوا وتجبروا والقرآن الكريم لا ينكر التفاوت بين الناس، بل هذه سنة من سنن الله تعالى بل ينكر الخلل الذي ينشأ في حياة الناس فإما أن يكون الفرد من المترفين أو من الفقراء المعدمين.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن هذا، لأن المترفين يسعون للطغيان سعياً لكي يحيطوا ترفهم بحصن حصين وحماية منيعة، فهم يرون أنفسهم أكبر من غيرهم وأعظم منزلة، وقد حذرهم القرآن الكريم من هذا الطغيان باعتباره مؤدياً إلى الهلاك. قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [سورة العلق:الآيتان ٦-٧] .

"إن الإنسان ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذ رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله فهو ينكر فضل الله ومنته عليه"(١). قال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٩ ﴾ [سورة الزمر:الآية ٤٩] .

"إن الإنسان إذا أصابه ضر دعا ربه، ثم إذا كشف الله الضر عنه، وخوله نعمة من نعمه، تنكر لله ولم يذكر أن هذه النعمة من عند الله، وهذا من ضلال العقل وخداع النفس، إنها سكرة النعمة تلبس الأحمق الجهول، فإذا هو مارد جبار يُخيّل إليه أنه يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً، إنها الفتنة والابتلاء فكما يبتلي الله بالشر يبتلي كذلك بالخير"(٢).

وفي قارون عبره قائمة إلى يوم القيامة وزجر لمن يسلك طرقه ويستغني بماله فيطغى ويتجبر. قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص٤٣٧، مصدر سابق.

(٢) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٤، ص١١٧٥ (باختصار)، مرجع سابق.

ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة القصص:الآيات ٧٦-٨١] .

بين هذا السياق الذي ورد في قارون كيف أن الله فتح عليه أبواب الرزق، فكثر ماله وأثرى ثراء فاحشا، فكفر بأنعم الله وبغى على قومه "وفرح فرحا قاده إلى الأشر والبطر والبغي"(١)، ووقف الذين تمنوا أن يكون لهم من الغنى الفاحش مثلما لقارون يراجعون مقاييسهم التي دفعتهم لقول ذلك ويتبصرون بسنة الله الحقيقية في ذلك. قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة القصص:الآية ٨٢] .

فكل أمة مترفة تطغى وتتجبر يبدلها الله بضيق الرزق والعذاب. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة النحل:الآية١١٢] .

(١) نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، تفسير السمرقندي، تحقيق علي محمد وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ج٢، ص٥٢٦ (بتصرف).

المبحث الثالث

علاج الترف في القرآن الكريم

المبحث الثالث: علاج الترف في القرآن الكريم

حرص القرآن الكريم على معالجة الترف في حياة الأمم وهو حرص ناشئ عن خطورة أمر الترف ودوره في هلاك الأمم وقد عالجه من خلال أمور عديدة هي:-

أولاً: أداء الواجبات المالية على الإنسان في المال:

أوجب الله تعالى واجبات في مال الفرد كما أعطاه حقوقاً متنوعة تضمن له حياة إنسانية كريمة، فمن حق أي إنسان في الأمة أن يحصل على ما يوفر له ضرورات حياته. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة الإسراء:الآية ٧٠] .

إن تلبية ضرورات الحياة أمر مهم حتى يتاح للإنسان وقتاً للاهتمام بالناحية الروحية والحياة الدينية له، "فالإنسان خليفة الله في أرضه، قد استخلفه عليها لينمي الحياة فيها، ويرقيها، ثم ليجعلها ناضرة بهيجة، ثم ليتمتع بجمالها ونضارتها، ثم ليشكر الله على أنعمه التي آتاه، والإنسان لن يبلغ من هذا كله شيئاً، إذا كانت حياته تنقضي في سبيل اللقمة ولو كانت كافية، فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية؟"(١).

وفي إنفاق المال كسر لآفة الترف وتحجيم لها، فالمنفق ينبغي له أن يفرح لأنه يعبد الله تعالى بإنفاقه فيعطي دون مقابل مادي فيحرر بذلك نفسه وروحه من متعلقات الدنيا.

وعلى الإنسان أن يؤدي واجبات مالية عليه تجاه المسلمين عامة، وأبرز هذه الواجبات الزكاة، فلها أثر كبير وطيب في حياة الأمة لما تؤديه من توازن اجتماعي وانسجام وتعاون بين أفراد الأمة بحيث تقضي على الحقد والكراهية والشر وتزرع بدلاً منها المحبة والخير والتكامل والتراحم.

إن الزكاة تساعد في تصحيح ميزان المجتمع في الأخذ والعطاء. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ

---

(١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص١٣٧، مرجع سابق.

وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٦٠] .

وقال تعالى حاثاً على الإنفاق ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة المعارج:الآيتان ٢٤-٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [سورة الطلاق:الآية ٧]

إن الأمة التي يخرج أفرادها زكاة أموالهم، ويتصدقون بحيث يعم الخير على الجميع أمة لا يمكن أن ينفذ إليها الترف، فإنفاق المال يهذب نفس الغني ويحميها من مرض الترف والترف كما سبق بيانه يعتبر عاملاً من أقوى وأسرع وأخبث عوامل التفتت الاجتماعي وانحلال روابط المجتمعات البشرية "لأن الانغماس في مراتع الشهوات وإشباع الغرائز المنهومة يميت الشعور بالنخوة ويقتل الإحساس بالعزة والغيرة ويجعل الرذائل من مألوفات الحياة في هذه المجتمعات المنحدرة إلى هاوية الانحدار بل يجعل الرذائل ميداناً للتنافس الفاجر فلا يهتم أحد رفع رأسه إنكاراً لها بل يجد المجتمع في كبرائه المترفين مَن ينكر على من ينكر هذه الرذائل، وتصبح الفضائل الخلقية والقيم الروحية غرائب في نظر هذا المجتمع، المنحل المتحلل وعندئذ تحق عليهم كلمة الله وتحل بهذا المجتمع عوامل الفناء"(١).

وقد طرح القرآن الكريم وجوه إنفاق كثيرة غير الزكاة، كالصدقة ابتغاء وجه الله تعالى، ورغب فيها، وهذه الصدقات تعاون الزكاة في تقوية اقتصاد الأمة والحفاظ على قوتها كلها فهي تساعد في القضاء على الفقر الذي يعتبره الإسلام مصيبة تفت من عضد الأمة، ومن ناحية أخرى تساعد في القضاء على الترف الذي يرافقه الحرص على الحياة وملذاتها، وقد تبنى القرآن فضل هذه الصدقة وأهميتها من خلال سور عديدة. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢٦١] .

---

(١) محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، ص٣٨-٣٩، مرجع سابق (طبعة ١٩٧١م).

قال ابن كثير: "هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف"[١].

"في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم ترد الدعوة لإطعام الفقراء والمساكين وسد حاجاتهم الأساسية، وفي أكثر من أربعين موضعاً يرد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات وتقييم دافعيتها والتنديد بما فيها، وفي أكثر من سبعين موضعاً يتردد ذكر الإنفاق وتسلط عليه الأضواء في كافة زواياه، وفي أكثر من موضع يجيء التأكيد على أن هذا العطاء ليس تبرعاً ولا مناً ولكنه (حق) السائلين والمحرومين ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة الإسراء:الآية ٢٦] وفي آيات أخرى يرد الحض على إشباع الجائعين وسد حاجاتهم الأساسية كجزء أصيل من متطلبات الإيمان، كممارسة الصلاة سواء بسواء، وأن التوقف عن هذا الحض يخرج أصحابه من حظيرة الإيمان"[٢].

فالقرآن يسعى من خلال نظام النفقات إلى تحقيق أبعد مدىً ممكن في مسألة التوازن الاجتماعي بين الناس في الحياة، حتى ينعدم وجود طبقة مترفة وأخرى فقيرة.

ثانياً: ترشيد الاستهلاك

وضحت الايات القرانية أن الأصل في المال أن يكون في يد من يحسن التصرف فيه، ولا يصح أن يكون بيد السفهاء لانهم لا يقدّرون القيمة الحقيقية له. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ ﴾ [سورة النساء:الآية ٥] .

وهذا اهتمام بتفويت الفرصة على السفهاء وأهل الشهوات والملذات أن يتصرفوا في المال وفق أهوائهم، فالمال ملك للأمة كلها، فإذا أساؤوا التصرف فيه فقد عملوا على تضييع طاقات الأمة وهدر مقدراتها.

---

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج١، ص٩٦١، مصدر سابق.
(١) عماد الدين خليل، في العدل الاجتماعي، مطبعة الحوادث، بغداد، ١٩٧٩م، ص٤٦.

ويعتبر الاعتدال والموازنة بين أمري الإنفاق والاستهلاك قاعدة من قواعد التصرف بالمال والذي طرحها القرآن الكريم واهتم بها. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الإسراء:الآية ٢٩] .

"وهذا النهي يتناول كل مكلف سواء أكان الخطاب للنبي سيدنا محمدﷺ تعريضا لامته وتعليما لهم، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين، والمراد النهي للإنسان بأن يمسك إمساكا يصير به مضيقا على نفسه وعلى أهله، ولا يوسع في الإنفاق توسيعا لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفا، فهو نهي عن جانبي الإفراط والتفريط ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط"(١).

إن الاتزان والاعتدال سمة يجب أن يتميز بها إنفاق المال واستهلاكه. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الفرقان:الآية ٦٧] . "والإسراف هو مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا، وإن كان من حلال، فإن ذلك مكروه لأنه يؤدي إلى الخيلاء، والتقتير والتضييق الذي هو نقيض الإسراف"(٢).

إن الآيات التي تدعو إلى الاعتدال والاتزان في الإنفاق والاستهلاك كثيرة حازت في القرآن الكريم مساحات واسعه لانها تعبر عن مبدأ مالي عظيم (الاتزان).

"فالآيات الكثيرة التي تأمر بربط (الإشباع) بـ(الاعتدال) والتقوى والعمل الإيجابي الصالح، وتنهى عن الإسراف والطغيان والفساد في الأرض، واتباع خطوات الشيطان، تعمق في أذهان المسلم العادي والمشرع وتحذرهما في الوقت نفسه، من حتمية هذه العلاقة المتقابلة بين عدم تنظيم الإشباع وبين كل ما يتمخض عنه من ظلم (اجتماعي) يتمثل في الإسراف والطغيان والإفساد في الأرض، وليس ثمة مجتمع تتحكم فيه قلة من الذين يملكون بكثرة من الذين لا يملكون، وتتخم فيه بطون معدودة وتتضور الملايين، يخلو من سمات الإسراف، والطغيان في

---

(١) القنوجي، فتح البيان، ج٤، ص١٢٤، مصدر سابق.
(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٨، ص٤٨٢ (بتصرف)، مصدر سابق.

الأرض، ذلك الإفساد الذي يتلبس وسط هذا التناقض الاجتماعي ألف لبوس ويتخذ – وقد اختفى التوازن – ألف وسيلة لتدمير المجتمع، وعرقلة الحركة الحضارية ووضع العقابيل في طريقها"(١).

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٦٨] .

حث القرآن الكريم على ترشيد الاستهلاك وكذلك واهتمت السنة النبوية به فأمر النبيﷺ بالاقتصاد فنهى عن الإسراف في الماء عند الوضوء حتى لوكان المسلم على نهر جار، وهو بذلك يريد أن يزرع في ضمائر المسلمين الاقتصاد في كل شيء و عدم هدر طاقات الأمة المختلفة.

كما نهت السنة النبوية الشريفة عن الاسرف في المأكل، فعن المقدام بن معدي كرب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس"(٢).

وقد روى النسائي في سننه أن رسول الله ﷺ قال: "كلوا واشربوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة"(٣).

إن مفهوم الاقتصاد وترشيد الاستهلاك على طرفي نقيض من مفهوم البخل، فالاقتصاد لا يجر الإنسان إلى البخل أبدا، وقد نهى القرآن الكريم عن البخل وشدد على صاحبه بضرورة معالجة النفس منه لئلا يصيبها العذاب. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٨٠] .

---

(١) عماد الدين خليل، في العدل الاجتماعي، ص٥٤، مرجع سابق.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الأطعمه، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، ج٢، رقم (٣٣٤٩)،ص١١١١.
(٣) سنن النسائي، كتاب الزكاه، باب الاختيال في الصدقه، رقم(٢٥٦١)، ص٣٧٦.

فالآية الكريمة "تدعو المؤمنين إلى الجود والسخاء من أجل إعلاء كلمة الله، وتتوعد البخلاء بأقسى ألوان الوعيد وأفظعها، وتبين أن كل ما في هذا الكون إنما هو ملك لله وحده فهو المعطي وهو المانع"[١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ٣٧] .

قال الزمخشري: "إن الذين يبخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتا للسخاء ممن وجد. ولقد رأينا ممن بلي بداء البخل، من إذا طرق سمعه أن أحدا جاد على أحد شخص به وحل حبوته، واضطرب، ودارت عيناه في رأسه، كأنما نهب رحله وكسوت خزانته ضجرا من ذلك وحسرة على وجوده"[٢].

وقد غرق المسلمون في مظاهر التبذير والإسراف نتيجة تقليدهم للأمم الكافرة، وكم من المال يبدد ويهدر في سبيل تقليد الغرب، وتحت مسميات مختلفة لها أول وليس لها آخر، وما درى هؤلاء أنهم يحملون بأيديهم معولا يهدم صرح أمتهم، وقد انتبه أعداء الإسلام إلى ذلك فاجتهدوا في إغراق المسلمين بكل ما يحتاجون إليه من تمتع في حياتهم: في المأكل والملبس والمسكن والمركب... الخ، حتى يجعلوا المسلمين منغمسين في الملذات المختلفة والترف الذي يورث الاسترخاء فيفقد المسلمين عزتهم وكرامتهم ويجعلهم أمة ضعيفة مقطعة الأوصال هنا وهناك.

وإذا أرادت أمتنا أن تقضي على الترف الذي لحق بها، وأهلك الله بسببه أقواما سابقين لابد لها من ترشيد الاستهلاك في كل نواحي الحياة، وخصوصا بما تمتلك من ثروات تعتبر عصب الحياة في هذه العصور كالنفط مثلا فله قيمة اقتصادية كبيرة في هذا الزمان.

فالأمم في كل زمان ومكان "يجب أن تسير وفق ضوابط الإيمان والخلق، وأن تولي وجهها شطر أهداف رفيعة وألا تسمح لنوازع الهوى والجور أن تميل بها وراء كبراء سفهاء"[٣].

---

(١) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر، ج٢، ص٣٥٣.
(٢) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٥٤٢ (باختصار)، مصدر سابق.
(٣) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط٧، دار الصحوة، ١٩٨٧م، ص٤٧.

الفصل الرابع

الظلم وأثره في هلاك الأمم

المبحث الأول

بيان مفهوم الظلم

المبحث الأول: بيان مفهوم الظلم

اعتبر القرآن الكريم الظلم من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تصيب الأمم في مقتل، أهلك الله تعالى به أمما كثيرة، فالظلم إن ساد في إحدى الأمم تعست وعاشت في شقاء وضيق، وفقدت أمنها ورقيها، وانهارت حضارتها مهما كانت دعائمها قوية.

والظلم لغة: "وضع الشيء في غير موضعه، وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد".

والظلم الميل عن القصد، وتقول العرب الزم هذا الصوب ولا تظلم عنه، أي لا تجر عنه"(١).

أما في الاصطلاح: فيقول الراغب: "وضع الشيء في غير موضعه المختص به أما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظلمت السقاء، إذا تناولته في غير وقته. والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، والظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق.

والثاني: ظلم بينه وبين الناس.

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه"(٢).

فالظلم خطر فتاك لا يقتصر على حياة الأفراد فقط، بل يتجاوز ذلك إلى حياة الأمة كلها، فيعتبر هداما للحضارات الإنسانية ومهيئا إياها للزوال، لذا أولى القرآن الكريم اهتماما كبيرا بهذا المرض الاجتماعي من خلال آيات قرآنية كثيرة.

ودائرة الظلم واسعة، فهي تشمل أصنافا متعددة من الذنوب والمعاصي، وقد نزه سبحانه وتعالى نفسه عن الظلم مبالغة في بيان حرمته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٢٧٧ (باختصار)، مصدر سابق.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٢٦ (باختصار)، مصدر سابق.

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ١٢٤]. فهذا السياق يحمل صورة تستشعر النفس بهاءها وروعتها في تنزيه الله سبحانه عن آفة الظلم، فتعالى ذكره لا يظلم نقيرا، والنقير هو عبارة عن نقطة تكون على ظهر النواة، قال الراغب: "النقرة: وقبة في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف"(١).

وهذه صورة قرآنية بيانية رائعة في تنزيهه سبحانه عن الظلم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة الإسراء:الآية ٧١] .

"والفتيل: هو القشرة التي في شق النواة"(٢).

وقال الراغب: "سمي ما يكون في شق النواة فتيلا لكونه على هيئته، وهو ما تفتله بين أصابعك من خيط أو وسخ ويضرب به المثل في الشيء الحقير"(٣).

وهذا تمثيل رائع منتزع من حياة الأمة التي نزل فيها القرآن ومن بيئتها فالنقير والفتيل أمر مشاهد باستمرار قريب من الحس باعتبار أن التمر أساس في غذائهم اليومي. وفي السياق تأكيد على حرمة الظلم وأن الخالق سبحانه عادل منزه عنه، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة غافر:الآية ١٧] .

وهذا تنزيه من سمته الثبات والاستقرار منذ الأزل إلى الأبد، بدليل وروده في الجمل الاسمية ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ ﴾ [سورة غافر:الآية ١٧] من ناحية، وفي الجمل الفعلية من ناحية أخرى والتي تدل على استمرارية هذا التنزيه في مختلف الأزمنة. قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٠٨] .

---

(١) الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القران الكريم، ص٢٥٥،مصدر سابق.
وانظر * الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٢، ص١١٢، مصدر سابق.
(٢) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٣، ص٢٥٣، مصدر سابق.
(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٨٥، مصدر سابق.

ثم جاءت السنة النبوية مؤكدة ومبينة وشارحة لما ورد في القــرآن الكريــم ملقيــة الضوء بذلك على حرمة الظلم ومؤذنة بخطره وشدة النهي عنه.

عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ﴿يـــا عبـــادي إنـــي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا... ﴾[١].

"والظلم مستحيل منه سبحانه وتعالى جده لأنه إنما يكون إذا تعديت الحـــدود وتجـــوزت المراسم، والباري جلت قدرته ليس فوقه أحد يحد له حدا أو يرسم له رسما حتى يكون متجـــاوزا لذلك ظالما، ولا فوقه من يستحق أن يطيعه حتى يحلل الحلال ويحرم الحرام، ولكن تحريم الشيء يقتضي المنع منه، والكف عنه فسمى الباري سبحانه تقدسه عن الظلم بهذا اللفظ فقـــال "حرمـــت على نفسي الظلم"[٢].

لذا لابد من ابتعاد الأمم والإفراد عن هذا المرض الفتاك – الظلم – ففي الابتعاد عنه خير عظيم، إلا أن الأمم وقع منها الظلم وهذا ما أخبر القرآن الكريم، وقد تركزت تلك الأخبـــار فـــي القرآن المكي في قصص السابقين حرصا على بناء الأمة المسلمة بناء سليما مدركة خطر الظلـــم من خلال الاعتبار بمصير الأمم الظالمـــة، قـــال تعـــالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ســـورة العنكبوت:الآية ٤٠] .

يقول الطبري: "لم يكن الله ليهلك هؤلاء الأمم الذين أهلكهم بذنـــوب غـــيرهم، فيظلمـــهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق، بل إنما أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم، وجحودهم نعمه عليهم، مـــع

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، ص٩٩٩.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر المازري، المعلم بفوائد مسلم، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، المؤسســـة الوطنيـــة للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، ١٩٩١م، ج٣، ص٢٩٠.

تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتفرقهم في نعم ربهم، وتقلبهم في آلائه وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم"(١).

ومجازاة الأمم على ظلمها لا يعد ظلما بل يعد انتقاما وعقابا لما ارتكبت من معاص، وهذا مقتضى عدله سبحانه، وقد أورد النص القرآني السابق بعض أصناف الهلاك التي أصابت الأمم السابقة كالحاصب والمقصود به "ريحا عاصفا فيه حصباء وهي الحصى الصغيرة"(٢). والصيحة: و"الأصل فيها رفع الصوت، ولما كانت الصيحة قد تفزع عبر بها عن الفزع"(٣) والأمم التي أهلكت بالصيحة "صاح بهم جبريل صيحة فانشقت قلوبهم وزهقت أرواحهم"(٤).

والخسف يقال فيه "يخسف المكان خسوفا خسوفا ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفا أي غاب به فيها"(٥).

إذن فالله كتب على كل أمة ظلمت الهلاك. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ ﴾ [سورة هود:الآيتان ١٠٠-١٠١] ، فقد قرر النص صراحة أن إهلاكهم هو نتيجة ظلمهم أنفسهم منذ البداية.

"وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد، ...فمنها قائم لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران، ومنها حصيد كالزرع المحصود، اجتثت من فوق الأرض وتعرى وجهها منه. وما الأقوام؟ وما العمران؟ إن هي إلا حقول من الأناسي كحقول النبات، غرس منها يزكو، وغرس منها خبيث، وغرس منها يسمو وغرس منها يموت!.

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٠، ص١٤٢، مصدر سابق.

(٢) إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، تحيق أحمد عبيدوا، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٦، ص٥٩٧.

(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٩٨، (بتصرف يسير)، مصدر سابق.

(٤) البروسوي، تفسير روح البيان، ج٦، ص٥٩٧، مصدر سابق.

(٥) صديق حسن القنوجي البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ج٤، ص٣٤.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [سورة هود:الآية ١٠١] فهم قد عطلوا مداركهم، وتولوا عن الهدى، وكذبوا بالآيات، واستهزؤوا بالوعيد، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين"(١).

والظلم عند بداية ظهوره ينشأ كظاهرة فردية، وهو في هذه المرحلة تبقى آثاره محصورة في الأفراد، لكن خطره يزيد ويعظم إن تحول إلى ظاهرة جماعية تتسم بها الأمة، فيصبح الظلم بكل ما يحمل في طياته من ذنوب ومعاص سمة واضحة وعلامة في الأمة، وإنما تصبح كذلك عندما تألف الذنوب وتسلم بوجودها، وهي متى ألفته واعتادت عليه سلمت بوجوده.

والأمة التي تعيش هذه المرحلة فتتشبع بالظلم وتألف الرذيلة والفواحش تعرض نفسها بذلك لسنة من سنن الله؛ سنة الأخذ والهلاك.

قال تعالى ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:الآيات ١١-١٥].

إن السياق القرآني بألفاظه يهز المشاعر ويستثير العقل بما ورد فيه، فلفظة كم التي تفيد التكثير تحمل في طياتها امما عديدة أهلكت بسبب الظلم سواء تلك التي ورد ذكرها في القرآن أم غيرها مما لم يرد ذكره في القرآن، كما أن لفظة القصم تحمل معنى "الكسر بإبانة أجزاء المكسور وإزالة تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى"(٢).

وهذا مما جنته أيديهم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٨٢].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص١٩٢٧-١٩٢٨، مرجع سابق.
(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، ج٤، ص٣٢٧، مصدر سابق.

وهذه الآية القرآنية تشير إلى مدى التلاؤم بين سنن الله تعالى، وهذا واضح في أخذ الله الأمم وإهلاكها بالظلم فما وصلت الأمم إلى حالة الترف إلا بعد أن تخطت مرحلة سابقة وهي مرحلة الظلم والتشبع منه، وكلاهما يعدان من أسباب هلاك الأمم والتي ركز عليها القرآن الكريم كثيرا.

وقد نبه ابن خلدون لأثر الظلم في تقويض الحضارات ووصفه بأنه مخرب للحضارات ومهدد بزوالها، ومؤذن بانقطاع أهلها[1].

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة طه:الآية ١٢٨] .

فلابد من الاعتبار لأن الظلم آثاره مدمرة. قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٣٧] .

ومن الذين ساق لنا القرآن الكريم هلاكهم بسبب ارتكابهم الظلم، خبر ظلم فرعون لبني أسرائيل، مستغلا سلطانه في ذلك. وأصحاب السلطان يملكون من أسباب القوة كثيرا كالمال والعدد والعدة وهم يرون "في الرسالة السماوية ما يهدد سلطان أصحاب النفوذ، لأنه يقلل نفوذهم ويحرمهم من بعض ما يعتبرونه حقا لهم، وسبيلا لإغواء غيرهم، ولذا تجد أن أكابر القوم هم أشد الناس مقاومة لرسالة الأنبياء، بل ويجدون في هذه الرسالة من الاحترام للأنسان والأنسانية ما يهدد كيانهم، ولذا تراهم قد جمحوا للتطرف في مقاومة هذه الرسالة، بل ويأمرون من هم تحت سلطانهم ونفوذهم بمقاومتها، وقد تصل بهم الحال إلى التهديد والوعيد لمن يؤمن بها، ولمن يدعو الى عبادة الله وحده، فكانوا بذلك رسل فساد في الأرض وسبيلا لاغواء غيرهم[2].

"ولا يعرف على وجه التحديد من هو فرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده، فالتحديد التاريخي ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية، ولا يزيد في دلالتها شيئا، ويكفي أن نعلم

---

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص٦٨٢، مصدر سابق.(بتصرف).

(٢) محمد عبد الرحيم عدس، من خصائص النفس البشرية في القرآن، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥م، ص١٠٨.

أن هذا كان بعد زمان يوسف عليه السلام الذي استقدم أباه وإخوته إلى مصر، وأبوه يعقوب هو إسرائيل وهؤلاء كانوا ذريته، وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرا"[١].

وقد ساس فرعون بني إسرائيل بسياسة الظلم والطغيان حتى لجت الحياة كلها بظلمه، فأصبح مثالا للظالمين يتلى في كتاب الله إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ ﴾ [سورة القصص:الآية ٤] . قد طغى فرعون في مصر وتجبر، وجعل أهلها طوائف، كل طائفة يستخدمها في خدمة شأن من شؤونه مستذلهم ومستعبدهم وقتل أبناءهم، وأبقى النساء لخدمته.

قال القاسمي: "إن فرعون تكبر وتجاوز الطغيان في أرض مصر وجعل أهلها شيعا أي فرقا وأصنافا في استخدامه وطاعته، يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل"[٢].

وقال ابن عاشور في العلو الوارد ذكره في الآية: "إن يستشعر نفسه عاليا على موضع غيره، ليس يساويه أحد، فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره، غير محقوق لحق من دين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح وتجنب فساد وضر وانما يتبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلها"[٣].

"أحس الطاغية أن هناك خطرا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر، ولكنه لم يستطع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف، فقد يصبحون إلبا عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٦٧٧، مرجع سابق.
(٢) القاسمي، محاسن التأويل، ج٥، ص٤١٦، مرجع سابق.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٠، ص٦٦، مرجع سابق.

للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده ولا تعتقد بألوهيته، تلك هـي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب"(١).

وكان فرعون يذبح أبناء بني إسرائيل حين الولادة بسبب "أن كاهنا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده، وفيه دليل على ثخانة حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لـم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل"(٢).

قال المراغي: "وقد أوكل بذلك عيونا تتجسس، فكلما ولدت امرأة منـهم ذكـرا ذبحـوه، ويستبقي إناثهم، لأنه كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يتمرسون الصناعات، وبأيديهم زمـام المال، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة، وغلبـوا المصريين عليـها، والغلـب الاقتصادي في بلد ما أشد وقعا وأعظم أثرا في أهلها من الغلب الاستعماري، ومن ثم لم يشـأ أن يقتل النساء"(٣).

وكاد نبي الله سيدنا موسى عليه السلام أن يكون ضحية لظلم فرعـون إلا أن الله تغمـده بعنايته فأوحى الله إلى أمه أن ترضعه وتلقيه في اليم ولا تخاف ولا تحزن لأنه راده إليها. قـال تعـالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ [سورة القصص:الآيات ٧-٩] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٦٧٧، مرجع سابق.
(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٣٧٦، مصدر سابق.
(٣) المراغي، تفسير المراغي، ج٧، ص١٤٩، مرجع سابق.

أراد الله تعالى إنقاذ بني إسرائيل بسيدنا موسى عليه السلام ليكون سببا في إسعادهم، وكانت امرأة فرعون وسيلة الإنقاذ المادية حتى تحقق هدفا خاصا بها لذا حاولت أن تزرع الرغبة لدى فرعون بتربية الرضيع، وكثيرا ما يسعى الإنسان بإرادته إلى أمور يريدها ولكن الله تعالى يفعل ما يشاء هو ويريد.

قال الطبري: "التقطه آل فرعون ظنا منهم أنهم محسنون إلى أنفسهم ليكون قرة عين لهم، فكانت عاقبة التقاطهم إياه هلاكهم على يديه"(١).

ولقد "استطاع فرعون وقومه أن يوهموا الناس بأن هذا النظام الفرعوني أفضل من غيره، وأنهم يقودونهم بنظام لا يفضله سواه"(٢).

لذلك فرض سلطانه وظلمه على جميع أفراد مملكته؛ المقربين والشعب والجيش حتى على أهل بيته. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التحريم:الآية ١١] .

وقد علا فرعون قمم الظلم عندما ادعى الألوهية والربوبية لنفسه صراحة ونفاها عن غيره، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ [سورة القصص:الآية ٣٨] .

وقال تعالى: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة النازعات:الآيات ٢٠-٢٤] .

وكان الناس طوع أمره ولم يجرؤوا على معارضته. قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآية ٥٤] . وكان الأولى بهم أن

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٠، ص٣٢، مصدر سابق.

(٢) محمد عبد الرحمن السيد عوض، الفرعونية كما يصورها القرآن، مكتبة السلام العالمية، ص٥١.

يزجروه لا أن يوافقوه "فمن الواجب شرعا الإنكار على الظالم ومنعه من الظلم وعدم الاستكانة له ولا الركون إليه، وبهذا تنجو الأمة مما قد يحل بها من عقاب أو هلاك بسبب الظلم الواقع فيها"(١).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [سورة المائدة:الآية ١٠٥] . ولو وجد فرعون من يمنعه من الظلم وينهاه عنه لما استطاع أن يحتفظ بقوته بل إنه سيضعف وتتلاشى قوته درجة درجة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة هود:الآية ١١٣] .

"فأعوان الظالم ظلمة مثله، فلا تجوز إعانة الظالم، لأنه إذا كان الركون بجميع أشكاله وأنواعه لا يجوز، فما يكون فيه إعانة فعلية للظالم أولى أن لا يجوز، والواقع أن الحاكم الظالم إنما يتمكن من ظلمه لمعاونة أعوانه وأتباعه وليس بنفسه فقط، فالمعاونة له بأي شكل من أشكالها لا تجوز لأنها تقوية له ومساعدة له لتنفيذ ظلمه، ولهذا إذا نزل العذاب بالحاكم الظالم نزل بأعوانه أيضا لأنهم مثله ظالمون كما حصل لفرعون وأعوانه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة القصص:الآية ٨] .

فالله جمعهم بوصف الخطيئة، ومن خطيئتهم: الظلم الذي كان يقترفه فرعون ويعاونه عليه هامان وجنودهما. فلما نزل العذاب بفرعون نزل بأعوانه"(٢).

قال تعالى: ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الذاريات:الآية ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة القصص:الآية ٤٠] .

---

(١) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٢٦.
(٢) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص١٢٨، مرجع سابق.

إن هلاك فرعون وجنوده بالغرق لهو دلالة واضحة على عاقبة الظالمين، وأعوانهم، حتى لا يسلك أحد مسلكهم وطريقهم فيصيبهم ما أصابهم، قال تعالى عن مصير فرعون ومن معه ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء:الآيات ٥٢-٥٩] .

"فقد حسم الموقف حسما يظهر قدرة الله تعالى في أحلك الساعات وأشد الأزمات ويبين مدى ضعف الاعتماد على القوة البشرية الظالمة في مواجهة قدرة الله تعالى"[1].

حقا إن الظلم مشكلة خطيرة، وقديمه امتدت منذ الأزمنة الغابرة، قبل نزول القرآن الكريم إذ أخبرنا عن الظالمين الجبارين من السابقين الذين حاربوا الله ورسله فاستحقوا العذاب بما تقشعر له الجلود وتأسف له القلوب وتبكي له العيون، وصدق الله العظيم.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الدخان:الآية ٢٩] .

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآيات ٥٤-٥٦] .

إن من مقتضى عدل الله سبحانه أنه لا يهلك الأمم الظالمة إلا بعدما يرسل إليهم نذيرا فيقيم عليهم الحجة بذلك. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الإسراء:الآية ١٥] .

---

(1) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج١٩، ص١٦١. مرجع سابق.

"إن الله لم يكن من سننه في تربية خلقه أن يهلك الأمم بعذاب الاستئصال الذي وعد به مكذبي الرسل منهم وهم غافلون عما يجب أن يوقفوا به ذلك الهلاك، بل يسبق هلاك كل أمة إرسال رسول يبلغها ما يجب أن تكون عليه من الصلاح والحق بما يقصه عليها من آيات الوحي في عصره، أو بما ينقله إليها من يبلغونها دعوته من بعده، إذ من حكمة الله في الأمم جعل ما يحل بها من عقاب جزاء على عمل ما استحقته، فيكون عقابها تربية لها وزجرا لسواها"(١).

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج٣، ص٢٥٥، مرجع سابق.

المبحث الثاني

أسباب الظلم ومظاهره في القران الكريم

المبحث الثاني: أسباب الظلم ومظاهره في القران الكريم

يشير القران الكريم إلى أن ذات الانسان تشكل منبع الظلم وبداية نشوئه، ثم تعتاد عليه فيرسو على وجه الحياة كظاهرة يلمسها الجميع، وذلك من خلال حالة العداء التي يعيشها طوال حياته يجاهد فيها العدو الأول وهو الشيطان لأن الشيطان أخذ على نفسه عهدا وميثاقا لغواية بني آدم إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ ﴾ [سورة الأعراف:الآيتان ١٦-١٧] . قال ابن عطية: "وهذا توكيد من إبليس في أنه يجد في إغواء بني آدم، وهذا لم يكن حتى علم إبليس أن الله يجعل في الأرض خليفة وعلم أنه آدم، وإلا فلا طريق له إلى علم أنسال آدم من ألفاظ هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقصد هذه الآية أن إبليس أخبر عن نفسه أنه يأتي لإضلال ابن آدم من كل جهة، وعلى كل طريق، يفسد عليه ما أمكنه من معتقده، وينسيه صالح أعمال الآخرة، ويغريه بقبح أعمال الدنيا، فعبر عن ذلك بألفاظ تقتضي الإحاطة بهم"(١).

والقرآن الكريم حذر الإنسان من خلال آيات كثيرة من عداوة الشيطان له وحثه على التيقظ الدائم في حياته لهذا العدو لئلا يغلبه فيورده موارد جهنم ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ ﴾ [سورة فاطر:الآية ٦] .

كما بصر المسلم بالوسائل التي يحارب به الشيطان ويرد كيده. قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ ﴾ [سورة الحجر:الآية ٤٢] . فالمؤمن حقا لا يجد الشيطان له مدخلا، وقد من الله عليه بأن لم يجعل للشيطان عليه سلطانا رغم ما يمتلك من أساليب ووسائل عديدة في الإغواء. فهو يرغب الناس في المعاصي والذنوب ويزين لهم شهوات الدنيا ويعظم أمرها في نفوسهم.

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٥، ص٤٤٧، مصدر سابق.

أما عباد الله المخلصين فلا يصل إليهم لذا لا يوجد للظلم مكان في نفوسهم " فالناس صنفان خاضع لشهواته ونزواته وماديته وطبيعته وغرائزه وهم شعب إبليس المتسلط عليهم وصنف مؤمن تقي روحه طيبة ونفسه كريمة، واتصاله بالله قوي وهؤلاء ليس لإبليس عليهم سلطان"(١).

إن من يتبع الشيطان واغوائه، فكأنما يخطو على خطواته. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٦٨] .

"والخطوة ما بين قدمي الخاطي، يقال: اتبع خطواته ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته"(٢).

فهو يخطو نفس خطوات الشيطان في عناية فائقة بالمشي على دروبه نفسها، وما دروب الشيطان إلا دروب تؤدي إلى موارد جهنم، وهي صورة غاية في الدقة بلغت السياق العقل والقلب إليها.

فالظلم يعد سببا من أسباب هلاك الأفراد إن كان في المجتمع بشكل فردي ويزداد خطره ويعظم إن كان كظاهرة جماعية في الأمة لأن مظاهره تطفو على جوانب الحياة كلها.

وللظلم أسباب متعددة ومتصلة مع بعضها بينها القرآن الكريم وهي:-

أولا: اتباع الهوى والغفلة:

إن الإنسان بإرادته النابعة من جهله يجعل الهوى سيدا له ويسير وفقا له فيتبعه ويسير على خطاه، ويعتبر الهوى عاملا أساسيا في هلاك الأمم لأنه مبني على حب الدنيا واتباع ما فيها

---

(١) محمد حجازي، التفسير الواضح، ج٢، ص٢٨٣، مرجع سابق.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٢٣٩، مصدر سابق.

من شهوات والغفلة عن الآخرة وعما فيها من سعادة ورفعة، والإنسان لا يعذر باتباعه هواه مهما ألقى من معاذير لنفسه، إذ يعد ذلك منقصة في عبادته لله، فهو يعبد ربه وفق ما أريد له وليس وفق ما يريد هو ويتمنى ويهوى، وكثيرة هي المعاصي التي يرتكبها الإنسان بدافع اتباع هواه.

قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٢٩ ﴾ [سورة الروم:الآية ٢٩] .

واتباع الهوى يبعد عن اتباع الحق ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ ﴾ [سورة الفرقان:الآية ٤٣] .

"هو استفهام يراد به الإغراء برؤية هذا الأمر العجيب المنكر، الذي يلتبس به ذلك الشيطان الضآل، الذي اتخذ إلهه هواه، وجعله معبودا يعطيه ولاءه ويسلم إليه إرادته"(١).

إن السير وراء الهوى وطاعته إنما هو غفلة عن إقامة الدين وتحقيق العدل في الأمة، فالدنيا بكل ما فيها إنما هي متاع غرور لا تستحق من الإنسان أن يلهث وراءها، لذا كثرت التحذيرات القرآنية من الاغترار بها، قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ٣٢] .

ان التعلق بالدنيا يجعل الإنسان غافلا عن آخرته، بل غافلا عن موارد الخير التي بها تحيا أمته وتسابق أمم الأرض في بناء حضارتها.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝١٩ ﴾ [سورة الحشر:الآية ١٩] ، والأمة إن وقعت فريسة للهوى ضمنت بذلك هلاكها

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٤، ص٣٠، مرجع سابق.

ونزول العقاب بها، وقد شبه الله سبحانه المتبع لهواه كالكلب الذي يهلث على أي حال، فإن حملت عليه يلهث وإن تركته يلهث، وهو مثل ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد، فالأمة التي تجري وراء الهوى أمة فقدت توازنها، تعيش تعبا متواصلا ولهاثا دائما ولا تدري لما تبغي اليه سبيلا.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ١٧٦].

لذا ينبغي على الأمم أن تتوقى المسير في دروب الشهوات الدنيوية لأنها تصبح بمرور الزمن أكبر هم للعباد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له"(١).

وهذا إنذار نبوي يحذر من اتباع الهوى والغفلة عن الحياة الآخرة، فإن من يفعل ذلك يكون قد ظلم نفسه وبالتالي استحق العقاب، ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآيات ٧٤-٧٨] .

ثانيا: العلو والاستكبار:

---

(١) سنن الترمذي، باب من كانت الآخره همه، رقم(٢٤٦٥)، ص٥٦٢.

يعد العلو والاستكبار من أخطر أسباب الظلم، لأنه يجر الأمم إلى التشبع بالظلم المؤدي إلى هلاكها، والأمم المستكبرة معرضة عن الله تعالى ومستعلية عن عبادته، وهو أمر يظهر لدى الأمم في كل زمان ومكان وقد يكون على شكل ظاهرة فرديه محدودة الأطراف، وقد ينتشر في الأمة كلها كظاهرة اجتماعية يغص بها المجتمع كله وهنا يتضاعف الخطر.

وقد وضح القرآن الكريم أثر الاستكبار وخطورته وأنه مؤد إلى الظلم وشيوعه لا محالة، فمتى بدأت الأمة تتخلق بخلق الاستكبار والعلو بدأت بالظلم، فلا يكون استكبارا إلا تبعه ظلم، والظلم ظلمات.

قال الراغب في بيان معنى أصل الاستكبار: "الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره، وأعظم الكبر التكبر على الله بالامتناع عن قبول الحق والإذعان له بالعبادة"(١).

ويعتبر إبليس أول المستكبرين برفضه أمر الله تعالى بالسجود مع الملائكة لآدم عليه السلام تفضيلا وتكريما له، وكان بهذا الرفض قد ظلم نفسه وأوردها ما تستحق من عقاب الله تعالى، قال قتادة: "كان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام"(٢).

وقد ربط القرآن الكريم الاستكبار المفضي للظلم بتقليد الآباء والأجداد فكثير من الأمم تمجد ما توارثته عن أجدادها من خلال القرون من أفكار ومعتقدات تفتخر بها بين الأمم، وترفض الانصياع لدين الحق مما يفقد تلك الأمة الصواب والاتزان في مختلف نواحي الحياة، وهذا تعصب واضح في تاريخ البشرية كلها. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة يونس:الآيات ٧٥-٧٨] .

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص٤٣٨، مصدر سابق.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢٣١، مصدر سابق.

إنهم ظلموا أنفسهم باستكبارهم "فخافوا من تحطيم معتقداتهم الموروثة، التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي وهو الخوف على السلطان في الأرض، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة.

إنها العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات، وانتحال شتى المعاذير"(١).

وقد أخبر القرآن الكريم عن استكبار الأمم السابقة التي عتت عن أمر ربها فظلمت نفسها، ثم استحقت الهلاك بما اقترفت، قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [سورة نوح:الآية ٧] .

إن الأمة المستكبرة تعيش حالة اختلال فكري وعدم توازن فتضمحل حضارتها مع مرور الزمن عليها وتتفكك أوصالها وتفقد وجودها بين الأمم بإهلاك الله تعالى إياها، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة فصلت:الآية ١٥] .

"إن الحق أن يخضع العباد لله وألا يستكبروا في الأرض وهم، من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله، فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق، استكبروا واغتروا" وقالوا من أشد منا قوة، وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم يعد هناك قوة تقف إلى قوتهم وينسون " أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟ إنها بديهة أولية. إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة، لأنه هو الذي مكن لهم في هذا القدر المحدود من القوة ولكن الطغاة لا يذكرون"(٢).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص١٨١٤، مرجع سابق.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٣١١٧، مرجع سابق.

إن امتلاك الأمم شيئا من القوة مهما كان نوعها سواء أكانت قوة فكرية أم قوة جسمية أم كثرة عدد أم قوة بامتلاكها أنواعا متعددة ومبتكرة من السلاح قد يؤدي إلى الاستكبار إذا لم توظف هذه القوة للحق ومغالبة الباطل وأهله، فامتلاك القوة أمر ضروري وحسن إذا استخدم فيما يرضي الله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٦٠] .

فامتلاك القوة واجب بشرط استعمالها في الحق ودفع الفساد والشرور. أما إذا استعملت القوة في الباطل عندئذ تكون الأمة أمة مستكبرة ظالمة تستحق الهلاك. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ ﴾ [سورة الفجر:الآيات ٦-١٣] .

إن عادا وثمود وفرعون "جميعا من الطغاة الباغين الذين استبدوا بالبلاد وبالعباد فأشعلوا الفساد حيث كانوا، ولهذا أخذهم الله جميعا بالعذاب فصبه صبا عليهم، وسوط العذاب هو خليط من ألوان العذاب، وقد أخذ الله سبحانه كل جماعة من أهل الضلال بلون من ألوان الهلاك.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين عاد وثمود وفرعون في سياق قصة واحدة، فكان من أعجاز النظم القرآني أن يجمع عذابهم، وما أخذ به كل فريق منهم في إناء واحد، وأن يصبه عليهم جميعا، فإذا وقع بهم أخذ كل فريق لون العذاب المسلط عليه"(١).

إن الاستكبار يشكل قوة دافعة للطغيان فالامم المتكبرة تشعر بأنه لا توجد قوة تقف في وجهها فتمارس الظلم مما يوصلها إلى حد استحقاق الهلاك الذي يجعلها عبرة للأمم الأخرى.

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٥، ص١٥٥٣-١٥٥٤ (باختصار)، مرجع سابق.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة محمد:الآية ١٣] .

والآية تحث قريشا على الاعتبار بمصير تلك الأمم الظالمة المستكبرة، "وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والاخرى"[١]. لذا لابد من الحرص على الاعتبار من مصير السابقين.

ثالثا: فساد الولاء:

إن ولاية الأمم البشرية يجب أن تكون خالصة لله تعالى، فتوالي من يوالي الله تعالى وهذا هو الأصل الذي نادت به وما تزال الفطرة البشرية السليمة والنقية حتى لا تنساق الأمم إلى الضياع والهلاك والدمار.

والولاء أصله "أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسب ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية النصرة"[٢].

والأصل أن لا يوالي المؤمن إلا الله ورسوله والمؤمنين، فلا يوالي الظالمين والمنافقين والكافرين، وقد حظي هذا النهي باهتمام القرآن الكريم على اعتبار أنه يمس العقيدة بشكل مباشر، وقد دعا إلى الولاية الحقة وإخلاصها والتبرؤ من الولايات الباطلة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [سورة هود:الآية ١١٣] .

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص٣١١، مصدر سابق.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٥٧٠، مصدر سابق.

وهذا نهي عن "الانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم"(١).

وفي هذا النهي يظهر إعجاز الأسلوب القرآني إذ قد منع الميل للذين صدر منهم الظلم سواء كان قليلا أم كثيرا فكيف الركون لمن اتصفوا بالظلم لذا كان السياق بـ " إلى الذين ظلموا "أي إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل إلى الظالمين"(٢).

وأظهر القرآن الكريم سبب عدم موالاة الأمم الكافرة والظالمة ووجوب التبرؤ منها لما يلحق بالأمة المؤمنة من آثار خطيرة. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١١٨] .

فلابد من تحرير الولاء لله ولرسوله في كل أمة مؤمنة انتسبت لرابطة الإيمان، ولا يقبل منها أبدا مهما تضافرت قوى الطغيان والشر عليها فلا تواليها وتركع لها من دون الله، إذ إن هذا ما تقصد إليه الأمم الكافرة، إنها تقصد إلى عزل الأمة المؤمنة عن ربها ودينها، وتسعى جادة لتحريرها من هذا الولاء وإفساده حتى تصبح أمة ظالمة فاسدة مثلها، والأمة المؤمنة أن وقعت في هذه الشراك يستحوذ عليها عدوها وتصبح كاللقمة السائغة له. قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٤٠٨، مصدر سابق.

(٢) محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، ج٦، ص٢٢١.

وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٧١] .

ولابد من تحقيق هذا الولاء والحفاظ على سلامته من الخلل وهذا الولاء: "يشير إلى ما في المؤمنين من معاني الإنسانية التي تعطي المؤمن وجودا مشخصا، وذاتية مستقلة، ثم هو – مع هذا الوجود الذاتي المستقل – يحكمه عقل رشيد ويوجهه قلب سليم، فيلتقي مع أصحاب العقول الرشيدة، ويتجاوب مع أولي القلوب السليمة، على جبهة الحق، وتحت راية الخير، فإذا هو قوة عاملة في هذا الميدان، يعمل للحق مع العاملين، وينتصر للخير مع أهل الخير، يبادلهم ولاء بولاء وحبا بحب وإخاء بإخاء"(١).

ووحدة العقيدة تعتبر الآصرة الأولى من أواصر موالاة المؤمنين بعضهم بعضا فتكون هي الرابط بينهم، وهي القاعدة التي تتجمع الأمة المؤمنة حولها.

والأمة المؤمنة إذا والت الظالمين تأثرت بهم، وأصبحت ظالمة، وهذا يدل على أن فساد الولاء ووقوع الخلل فيه يدفع الأمة للظلم، وهذا المرض الذي يقضي على القيم والمعاني الروحية، ومتى اختل ولاء الأمة انتشر فيها الظلم وساد، وأفسد حياتها وأوردها موارد الردى.

وكثير من النصوص القرآنية تبين القاعدة التي تتجمع حولها الأمم الضالة وهي قاعدة العقيدة المنحرفة والظلم. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ ﴾ [سورة الجاثية:الآية ١٩] ، وقال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٦٧] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٧٣] .

إن المؤمنين إذا والوا الظالمين والكافرين والمنافقين لابد أن تنحرف عقيدتهم كهؤلاء لذلك كان النهي عن موالاتهم أمرا منطقيا يسعى العقل لتحقيقه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٢، ص٨٤٣، مرجع سابق.

لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٢٣].

وقد وصف الله هؤلاء الظالمين بأوصاف عديدة تنفر النفس من مجرد التفكير باللحوق بمركبهم، فقد وصفهم بصفات عديدة ينفر منها الطبع السليم، لما تحمله من تبكيت وتوبيخ لأصحابها، كالأجرام. قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ٨٤] .

وقد حث القرآن الكريم الأمة المؤمنة على التبرؤ من موالاة الظالمين والكافرين حتى تخرج من دائرة الظلم فلا توالي غير المؤمنين، أما الظالمون فلا يواليهم غير ظالم. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ١٢٩] .

إن الله " يجعل بعضهم أولياء بعض بحكم ما بينهم من تشابه في الطبع والحقيقة، وبحكم ما بينهم من اتفاق في الوجهة والهدف، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة في المصير.

ونحن نراهم في كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضا على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح – إذا كانت المعركة مع دين الله ومع أولياء الله، فبحكم ما بينهم من اتفاق في الطينة، واتفاق في الهدف يقوم ذلك الولاء.

وإننا لنشهد في هذه الفترة – ومنذ قرون كثيرة – تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين – على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها – ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامي في الأرض كلها.

وهو تجمع رهيب فعلا، تجتمع له خبرة عشرات القرون في حرب الإسلام"(١).

لذلك يجب أن يجابهوا بأيد مؤمنة تصارعهم وتقضي على ظلمهم وباطلهم وتنشر الحق والعدل، والأمة المؤمنة تنصر المؤمنين وتعاونهم لاتحاد العقيدة والمصير وهذا هو الولاء الحق

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص١٢٠٨، مرجع سابق.

الخالي من الظلم، وتعتبر النصرة أهم ثمرة من ثمرات الولاء وأصدقها دلالة وهذا ما يفسر في كثير من الأحيان التلازم بين الولاء والنصرة في السياق القرآني. قال تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢٨٦] ، "وجيء بالفاء للتفريع عن كونه مولى لأن شأن المولى أن ينصر مولاه، وفي التفريع بالفاء ايذان بتأكيد طلب إجابة الدعاء بالنصر لأنهم جعلوه مرتبا على وصف محقق وهو ولاية الله تعالى المؤمنين"(١).

وقال تعالى ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٤٠] .

لذا ينبغي على الأمة أن تهتدي بهدي القرآن الكريم فلا تخلص في ولائها إلا لله تعالى ولا توالي كافرين أو ظالمين أو فاسقين لأنها إن فعلت ذلك فقد ظلمت ووضعت الولاية في غير موضعها الحق، لذا يجب أن تحذر من أن ترتكب مثل ذلك الذنب مهما زينت لها الأسباب وإلا ستفقد نصرة الله تعالى لها. قال تعالى: ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٧٤] .

والظلم بشكل عام عندما يصبح سمة عامة في حياة الأمم فلابد وأن تمتلئ الحياة بمظاهر فاسدة كثيرة فتفقد الأمة العدالة الاجتماعية. التي حرصت عليها الشريعة الإسلامية؛ هذه الشريعة التي تختلف عن بقية الشرائع وتتميز بربانيتها وثباتها وشمولها وصلاحها للبشر في كل زمان، فمتى تنحت هذه الشريعة عن الحياة واستبدلها الناس بشريعة أخرى تحقق لهم مصالح آنية يدركونها من خلال منظار مشوه في بيئة فاسدة انتشرت مظاهر الظلم فيها، ومظاهره كثيرة في

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التنونسيه للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٤م، ج٣، ص١٤٢.

الحياة متعددة حرص القرآن على بيانها والتنفير منها حتى ينتهي الناس عنها، وأبرز هـذه المظاهر هي:

أولا: الخلل في مقياس التفاضل:

إن الأمم الظالمة تتجاهل المقياس الحقيقي للتفاضل بين الناس وتحرص على تغييبه عن الحياة الواقعية باعتبار ضياع بعض ما تعتبره مصالح لها، واصل مقياس التفاضل هو التقوى النابع من الإيمان بالله تعالى، وليس ما تخترعه من مقاييس زائلة كامتلاك المال الكثير أو القوة المادية عديدة الأصناف أو النسب الرفيع، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [سورة الحجرات:الآية ١٣] .

قال ابن كثير: "إنما تتفاضلون بالتقوى لا بالأحساب"(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم"(٢).

إن غياب التقوى كمقياس للتفاضل بين الناس تجعل مقاييس أخرى تحل محله كالحرص على امتلاك المال فيصبح الغني هو الأفضل، مع أن الإسلام لم يجعل للغني منزلة عالية وفضلى ينالها لمجرد أنه غني، فقد أهمل العامل المادي في التفضيل بين الناس. "فقوة الإنسان إنما هي في ذكاء لبه، وحياة قلبه وإذعانه للحق متى لاحت له أماراته، أما المال والنشب، والحشم والأعوان فهي عوار تجيء وترتحل وتفر حينا ثم تنتقل"(٣).

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص٣٨٦، مصدر سابق.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى " أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت... ونحن له مسلمون" [البقره:١٣٣]، رقم (٣٣٧٤)، ص٦٤٧.

(٣) المراغي، تفسير المراغي، ج١٠، ص٣٢٨، مرجع سابق.

كما وجه الخطاب القرآني النبي ﷺ إلى إهمال العنصر المادي في سورة القلم، وفي هذا توجيه وتربية لأمته من بعده أن لا يطيعوا الكافرين أصحاب الأموال. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة القلم:الآيات ١٠-١٤] .

كما أنكر القرآن أن يكون الغنى مانعا لإنزال العقوبة فيمن يستحقها، وهنا تظهر روائع العدل في الإسلام إذ لم يفرق بين غني وفقير، قال رسول الله ﷺ: " أن بني اسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه"(١).

وقال رسول الله ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبه" (٢).

إن جعل الغنى مقياسا للتفاضل بين الناس خلل يعيب الأمة، لأن وجود الغنى والفقر ظاهرة تعيشها الأمم بسبب خارج عن قدرة البشر. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ١٦٥] .

فظاهرة الغنى والفقر ضرورة لتحقيق معنى الاستخلاف، فلا يصح اعتبار الغنى مقياسا للاحترام والتفضيل والتقدير في الأمة.

وقد أنكر القرآن الكريم هذا المقياس عند فرعون في بيان الأفضل، فقد رأى في نفسه الغنى الذي أهله للأفضلية وأخذ يتباهى في ذلك. قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الزخرف:الآيات ٥١-٥٣] .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب ذكر أسامة بن زيد، رقم (٣٧٣٣)، ص٧١٣.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، رقم (٧١٤٢)، ص١٣٦٢.

وروى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي – اهتمام النبي ﷺ – بتصحيح الخطأ في مقياس التفاضل الذي يسود بين الناس – أنه قال: "مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا قال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري أن خطب أن ينكح وأن شفع أن يشفع قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا، فقال: هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"(١).

إن التقوى هي التي تحدد القيمة الحقيقية لدى الإنسان، وهي التي يجب أن تتخذ مقياسا للأفضلية بين الناس على مر العصور.

ثانيا: اختلال أمن الأمة:

يعتبر الأمن من أجل وأعظم النعم على الأمم، وقد ذكره السياق القرآني في سورة قريش بعد ذكر نعمة الطعام والتي تعتبر أساسية لحياة البشر وذلك للدلالة على أهمية الأمن والطمأنينة وضرورة سعي الأمم للحصول على أسباب هذه النعمة.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝ ﴾ [سورة قريش:الآيتان ٣-٤] ، كما دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه طالبا أن يمن على مكة بالأمن، وقدم في دعائه الأمن على الرزق الذي يعتبر من مهمات الحياة الأولى إشارة إلى عظيم نعمة الأمن في حياة الأمم وأنها نعمة لا تستبدل بكنوز الأرض كلها. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٢٦] .

والقرآن الكريم أرشدنا إلى حقيقة مهمة هي أن الأمم الظالمة لا يمكن أن تحيا حياة الأمن والطمأنينة، بل تحيا حياة الخوف والفزع والتي تختفي في ظلالها الروابط الإيمانية بين

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، رقم(٥٠٩١) و (٦٤٤٧٩، ص ١٢٣٨.

أبناء الأمة الواحدة، فلا يأمن الفرد على حياته أو ما يمتلك بسبب حالة الفوضى والفساد السائدة. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة النحل:الآيتان ١١٢-١١٣] . "والنص يجسم الجوع والخوف فيجعله لباسا ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا لأن الذوق أعمق أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف حس الجوع والخوف ولذعة تأثيره وتغلغله في النفوس"(١).

والأمة الظالمة هي التي ترتدي لباس الجوع والخوف، وهو لباس تأنفه النفوس وتستعيذ منه الألسنة، فتبقى أمة هزيلة، يفتقد فيها أبناؤها الأمن فلا يطمئن أحد على وطنه أو نفسه أو عرضه أو ماله، فيبقون في حياة الظلم والظلمات لا يرون ضياء أمن أو سكينة لذا لا يمكن أن تسود لهم حضارة أو تزدهر.

ولا سبيل للخلاص من تلك الحالة إلا بالقضاء على الظلم عندئذ فقط يكون الأمن والذي في ظله "يؤدي كل فرد واجبه على أحسن ما يكون وتؤدي كل جماعة واجبها كأحسن ما يكون في الأداء وفي الجو الآمن تنطلق الكلمة المعبرة والفكر المبدع والعمل المتقن المدروس، وفي جو الأمن يحيا الناس مطمئنين فرحين مستبشرين يؤدون واجباتهم في هدوء واستقرار وفي سعادة وهناء وسلام"(٢).

"والأمن والاستقرار يزرع في قلب الإنسان الأمل الذي يشرح الصدر للعمل ويبعث في الإنسان النشاط في روحه وبدنه، ويدفع الكسول إلى الجد وترك الكسل، والمجد إلى المداومة على جده، ويحفز الناجح ليستمر في زيادة جهده ليستمر نجاحه، والأمن يدفع المزارع إلى الكدح والعرق لما يزرع فيه من أمل الحصاد، ويحمل التاجر على الأسفار والمخاطرة من أجل أن يأتي ،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٩٩، مرجع سابق.

(٢) نايل أبو زيد، الأمن الاجتماعي من منظور القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩١م، ص١٧.

بالخيرات إلى أبنائه وأبناء أمته، ويبعث في الطالب الجد والمثابرة، وهو الذي يحفز الجندي في ساحة الوغى على الاستبسال من أجل تحقيق النصر لأمته، لأن من لا يأمن على أهله وأبنائه لا يمكن أن يحقق نصرا لأمته، ولن يتفرغ لعدوه ما دامت عيناه ناظرتين إلى من خلفه وقلبه مشغول عليهم.

وفي غير الأمن والاستقرار لا يمكن أن يتحقق للأفراد والجماعات تقدم وازدهار، فكيف يمكن لصانع أن يتقن صنعته، وهو مرتعد خائف قلق النفس مرعوب الفؤاد على ما بين يديه؟ فما صنعه معرض لأن يسلب منه في أي لحظة، فيذهب جهده هباء أو يصبح ملكا لغيره دون تعب وعناء"[١].

ويشير القرآن الكريم إلى أن الأمم التي تعيش الظلم وتكثر أساليبه وأدواته فيها لا يمكن أن تعيش أي نوع من أنواع الأمن، كالأمن العقدي، أو الفكري، أو النفسي أو العسكري أو الاقتصادي، بل كلما زادت حياتها تطورا زادت مصادر الخوف والفزع فيها وبالتالي زاد عناؤها وشقاؤها.

ثالثا: تمزق وحدة الأمة:

إن الظلم يفقد الأمة قوتها ويذهب هيبتها ويشتت وحدتها، فيملؤها التنازع والاختلاف مما يجعل الحياة فيها مضطربة وأحيانا متعطلة، فتصبح صيدا سهلا لعدوها، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ

---

(١) نايل أبو زيد، الأمن الاجتماعي من منظور القرآن الكريم، ص١٧، مرجع سابق.

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٠٣].

إن الدعوة إلى توحيد الأمة "من طبيعة الإسلام، فهو الذي يزرع أصولها في قلوب المؤمنين، ويمكن الشعور بها، ولا تدوم وحدة إلا إذا انعقدت عليها الضمائر والقلوب، وقد يتجمع الناس على أرض واحدة، تحت سيطرة حاكم واحد، تجمعهم بالترغيب أو الترهيب ولكنها وحدة مزعزعة الأركان.

إن الإسلام يستأصل من قلوب المؤمنين كل شعور بالاختلاف ويوحد بينهم بوسائل وأساليب كثيرة منها أنه يعرفهم بوحدة أصلهم، وأنهم انبثقوا من نفس واحدة، وبعد أن يهيئ الإسلام قلوب أتباعه لقبول الوحدة يشرع في إدخالهم فيها بالفعل فيجمعهم على عقيدة واحدة، ثم يجمعهم على قيادة واحدة فيأخذون بهدي الله عن طريق رسول الله ﷺ"(١).

وأشار القرآن إلى ضرورة الاتعاظ بالأمم السابقة التي ملأها التفرق والنزاع. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٠٥] .

"أي ولا تكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا في الدين وكانوا شيعا، تذهب كل شيعة منها مذهبا يخالف مذهب الآخر وتنصر مذهبها وتدعو إليها وتخطئ ما سواه، ولذا تعادوا واختلفوا"(٢).

"ولأن الوحدة قوة والتفرق ضعف لم يكن ﷺ يحط رحاله في دار هجرته حتى أخذ في بناء الأمة الإسلامية على أسس قوية، فآخى بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار، وكون منهم أقوى وحدة عرفها التاريخ، وتقوية للجبهة الداخلية عقد مع سكان المدينة من غير المسلمين معاهدة دفاعية وحافظ عليها حتى بدأوا هم بنقض عراها فكان وبالها عليهم"(٣).

---

(١) أحمد إسماعيل نوفل، الحرب النفسية من منظور إسلامي، ط٢، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م، ص١١٣.
(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٢، ص٢٠، مرجع سابق.
(٣) محمد جمعة عبد الله، وسائل النصر، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص٥٤.

إن تنقية حياة الأمة من الظلم يعتبر ضرورة ملحة في كل زمان، فبغيابه تتوحد الأمة وتعيش حياة ملؤها عزة وكرامة ونصرا على أعدائها، وقد أدرك ذلك النبي ﷺ فعمد للقضاء على الظلم وكل ما يصدر عنه من نزاعات واختلافات عديدة، ثم وحد المسلمين، وقد ضرب لنا القرآن الكريم صورة بهية ورائعة لما قام به النبي ﷺ محفوفا بنصرة ربه ومعونته عبده ورسوله. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الأنفال:الآيتان ٦٢-٦٣] .

قال الطبري: "جمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج بعد التفرق والتشتت على دينه الحق، فصيرهم به جميعا بعد أن كانوا أشتاتا، وإخوانا بعد أن كانوا أعداء"(١).

"فقد جمعهم على الإيمان بالله والإخاء في الله، فكانوا كيانا واحدا، وجسدا واحدا، ومشاعر واحدة، وذلك مالا يكون إلا عن فضل من الله، وبهذا الفضل توحدت قلوب المؤمنين، واجتمعت على الولاء لله ولدين الله ولرسول الله، الأمر الذي لا تستطيع قوة بشرية أن تحققه في أي مجتمع إنساني على تلك الصورة، ولو أنفقت في سبيل ذلك كل ما في هذه الدنيا من مال ومتاع"(٢).

وفي كل زمان ومكان وعلى أي حال يجب على المسلمين أن يسعوا لتوحيد أمتهم، فبها تقوى وتزداد استقرارا، ولابد من أخذ العبرة من الأمم السابقة كبني إسرائيل الذي يضرب المثل بشدة تفرقهم واختلافهم، وهذه هي الصفة التي وسمهم القرآن الكريم بها في سورة الحشر. قال تعالى: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الحشر:الآية ١٤].

"إن عدواة بعضهم لبعض شديدة يعني أنهم ليسوا بمتفقي القلوب"(٣).

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٦، ص٢٨٠، مصدر سابق.
(٢) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٢، ص٦٥٢، مرجع سابق.
(٣) الطبري، مجمع البيان، ج٩، ص٣٣٧، مصدر سابق.

"واجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن، وهذا التخـالف هـو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدة"[١].

وتعتبر طاعة الله ورسوله من الأسس الأولى التي تقوم عليها وحدة الأمة لذلـك حـض القرآن على الطاعة ونهى عن العصيان. قال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ٥٩] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٤٦] .

"أي ولا يكن منكم تنازع واختلاف، فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة، فيتغلـب عليكم العدو، وأصل الريح الهواء المتحرك ثم استعيرت للقوة والغلبة"[٢].

---

(١) القنوجي، فتح البيان، ج٧، ص٣٧، مصدر سابق.

(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٤، ص٨، مرجع سابق.

المبحث الثالث

علاج الظلم في القرآن الكريم

المبحث الرابع: علاج الظلم في القرآن الكريم

ركز القرآن الكريم على بيان أن الظلم مرض فتاك يهدم الحضارات ويقوض بنيان الأمم، وقد بين الطرق والمسالك التي من خلالها تحفظ الأمة نفسها سليمة قوية وهذه المسالك والطرق تتمثل بما يأتي:

أولا: التوبة بالرجوع إلى الله تعالى:

يعد حسن الإيمان بالله عز وجل منبع التوبة والدافع لوجودها؛ فالإنسان مهما ارتكب من ظلم يستطيع أن يستغفر ربه وسيجده توابا رحيما غافرا لذنبه، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الزمر:الآية ٥٣] .

ولابد لكل مذنب أن يستشعر عظمة الله سبحانه وتعالى فيؤمن به حق الإيمان عندئذ سيشعر بالطمأنينة والأمن في نفسه، فلا تجد للحيرة والقلق مكانا في قلبه.

والإنسان لا يرتكب الظلم إلا إذا ضعف إيمانه بمولاه عز وجل وقل يقينه فانحدر وراء ما يحيط به من نفسه الإمارة بالسوء وشيطانه الذي يزين له السوء. قال رسول الله ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن..."[(١)].

قال النووي "أي لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله"[(٢)].

وتعد التوبة مسلكا شرعيا للتخلص من وزر الظلم، وهو باب من أبواب رحمة الله سبحانه بعباده، فلا تخلو حياة أحد منا لظلم مهما صغر سواء كان في حق ربه، أم في حق نفسه أم في حق الناس. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الهبة بغير إذن صاحبها رقم (٢٤٧٥)، ص ٤٦٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، ج٢، ص٤١، دار الكتب العلميه، بيروت، لبنان.[الكلام للنووي].

ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة النساء:الآيات ٢٦-٢٨]. قال الراغب: التوبة ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: أما أن يقول المعتذر لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة.

والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة. وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة"(١).

فإن تحققت شروط التوبة التي ذكرها الراغب تعتبر مقبولة، حتى لو تكرر الذنب مرارا وتاب صاحبه مرارا - مع توفر تلك الشروط - تعتبر في دائرة القبول، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: "إن عبدا أصاب ذنبا وربما قال: أذنب ذنبا. فقال رب أذنبت، وربما قال: أصبت، فأغفر لي. فقال ربه، أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبا، أو أذنب ذنبا فقال: رب أذنبت أو أصبت آخر فاغفره؟ فقال: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا وربما قال: أصاب ذنبا، قال: رب أصبت -أو قال: أذنبت- آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثلاثا فليعمل ماشاء"(٢)

قال النووي: "لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه وقوله عز وجل: "اعمل ما شئت فقد غفرت لك" معناه ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك"(٣).

---

(١) الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٧، مصدر سابق.
(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: "يريدون أن يبدلوا كلام الله"، رقم(٧٥٠٧)، ص١٤٣٠.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وان تكررت،ج١٧،ص٧٥.

وتفترق التوبة من الظلم إن كانت في حق الله تعالى أو في حق أحد العباد، فإن كانت في حقه سبحانه فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [سورة الزمر:الآية ٥٣] مهما بلغت، أما إن كانت في حق أحد من العباد فيجب إعادة الحقوق لأصحابها هذا بالإضافة إلى الإقلاع عن المظلمة والندم على ارتكابها والعزم على تركها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يأخذ أخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه"(١).

فالتوبة واجبة على المؤمنين، قال القرطبي: "ولا خلاف بين الأمة بوجوب التوبة وإنها فرض متعين"(٢). قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة النور:الآية ٣١] .

وقد حرص القرآن الكريم على التوبة فرغب فيها وبين أنها فضل من الله ومنة على عباده كما رهب من تركها فقد ادخر سبحانه للظالمين عذابا أليما. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ١١٠]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٣٩] . وقال تعالى: ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الرعد:الآية ٦] .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٤)، ص١٢٥١، وفي كتاب المظالم باب من كانت له مظلمة حديث رقم (٢٤٤٩)، ص٤٦٢.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ص٢٣٨، مصدر سابق.

والظالم إذا تاب إلى الله تعالى وأناب فإن الله يكفر عنه ذنوبه. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [سورة التحريم:الآية ٨] . قال الطبري: "عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحوا سيئات أعمالكم التي سلفت منكم"(١). وبالتوبة يمتع الله تعالى العبد فيكثر له من الخيرات ويبارك له في رزقه. قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [سورة هود:الآية ٣] . هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب سبب لأن يمتع من فعل ذلك متاعا حسنا إلى أجل مسمى"(٢).

والتائب ينال محبة الله تعالى ورضاه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢٢٢] . "والتواب هو المكثر من فعل يسمى توبة"(٣) حتى يصبح سمة راسخة في نفسه.

كما أن الملائكة تدعو الله عز وجل لقبول توبة التائبين ختى يغفر لهم ما صدر عنهم من ذنوب، وإنها لمكرمة عظيمة وعلية للتائبين. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة غافر:الآية ٧] .

قال ابن كثير: "يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: "ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما أي: إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم،

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٢، ص١٥٩، مصدر سابق.
(٢) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣م، ج٣، ص٩.
(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٤٢٠، مصدر سابق.

فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا واقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات، وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم"(١).

ثانيا: الإيمان بالجزاء:

يعد الجزاء من الأساليب العلاجية الهامة لمرض الظلم، فالظالم إذا أيقن أن وراء ما يقترفه من ظلم وآثام ومعاصي في أقواله وأفعاله حساب وعقاب ارتدع عما هو فيه ورجع إلى مولاه الحق.

وكذلك المؤمن إذا أيقن أن الله تعالى يجزيه خيرا على ما يفعل هو من خير، يزداد من عمل الصالحات كما يزداد رجوعه إلى الله تعالى. قال سبحانه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة ق:الآيات ٣١-٣٥] .

إن قانون الجزاء الإلهي يحقق السعادة والاستقرار لمجموع الأمة، فتحيا حياة هانئة كريمة تحفظ فيها الدماء والأعراض والعقول والأموال والدين والحريات ويقضى فيها على الشر والفساد، فيطهر المجتمع ويستقيم حاله.

إن كرامة وحرية الفرد في الأمة محفوظة "فالإسلام يصون دمه من أن يسفك، وعرضه من أن ينتهك، وماله من أن يغتصب، ومسكنه من أن يقتحم، ونسبه من أن يبدل، ووطنه من أن يخرج منه، وحريته أن تقيد وتعطل خداعا ومكرا ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص١٣١، مصدر سابق.

وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبا من تلك الحصانـــة، ولا تعود إلى ما كانت عليه حتى يتوب ويعاقب عليها بما يستحقه"[١].

والجزاء قانون إلهي تقتضيه طبيعة حياة الإنسان، فهو يعيش في امتحان واختبار، وكـــل امتحان يتبعه جزاء وهذا من عدل الله تعالى، ونوع هذا الجزاء يتبع حال الإنسان إن ظلم أو لـــم يظلم، قال تعـــالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة القلم:الآيتان ٣٥-٣٦] ، وقال تعـــالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الجاثية:الآية ٢١] .

وقـــال تعـــــالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة ص:الآية ٢٨] .

والأمم الظالمة تنال جزاءها في الدنيا قبل الآخرة، وقد ساق لنا القرآن الكريم أخبار هلاك الأمم الظالمة في الحياة الدنيا، لأن وقوع الجزاء في الحياة الدنيا له آثار عظيمـــة فـــي النفـــوس البشرية، حيث يشكل رادعا قويا من الظلم والمعاصي والإساءة ولو اقتصر جزاء تلك الأمم فـــي الآخرة فقط لفتح الباب لكثير من الناس أن يرتكبوا الظلم والمعاصي.

وينبغي ألا نغتر بحال الظالمين الذين مكن الله لهم، فهو سبحانه يؤخر عنهم الهلاك لحكمة يريدها. قال تعـالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ٦] .

قال سيد قطب: "إنه كما يخدع الناس إن يروا الفاجر الطاغي أو المستهتر الفاسد أو الملحد الكافر ممكنا له في الأرض، غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون، إنـــهم يـــرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهايته، ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء، لا تـــرى إلا فـــي مصارع الغابرين، بعد أن يصبحوا أحاديث، والقرآن الكريم يوجه إلى هـــذه المصـــارع ليتنبـــه المخدوعون الذين لا يرون في حياتهم الفردية القصيرة نهاية الطريق فيخدعهم مـــا يـــرون فـــي

---

(١) محمد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية، دار القلم، ١٩٧٣م، ص٣٣-٣٤ (بتصرف).

حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق، وأن هذه سنة ماضية ولو لم يرها فرد في عمره القصير، أو جيل في أجله المحدود، ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشوا فيها الذنوب، وحين تقوم حياتها على الذنوب"[١].

قال تعالى ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآيتان ١٩٦-١٩٧] .

قال الشيخ زاده "لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم"[٢] وهذا يعني بأن لا نغتر بحال الكفار وأمنهم وتصرفهم في البلاد لأن كل ما يتمتعون به مجرد متاع قليل زائل.

وقد سن القرآن الكريم نظام عقوبات واسعا يساهم في علاج آفة الظلم بشكل وقائي، أي أنه يقي الإنسان من الوقوع في الظلم، وبالتالي يحمي الأمة كلها من الرذائل، فتحيا حياة فضيلة يشع بهاء الخير من جنباتها، وذلك النظام تنتشر تشريعاته لتشمل نواحي الحياة كلها، الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها. ففي الحياة السياسية على سبيل المثال الشورى وهو نظام أصيل في الوقاية من الظلم بالإضافة إلى اعتباره خير وسيلة "للكشف عن الكفاءات والقدرات، فبها يظهر الأكفياء وتستفيد الأمة من كفاءاتهم، كما أنها تدرب المستشار على المساهمة في الحكم والإدارة وتثريه بالتجربة وجودة الرأي والتفكير من خلال ممارسته للشورى"[٣].

قال تعالى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٥٩] .

وفي الحياة الاجتماعية على سبيل المثال حرم الاختلاط، حرصا على نقاء المجتمع وطهارته من جريمة الزنا[٤]. قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٢، ص١٠٣٨، (باختصار). مرجع سابق.
(٢) محيي الدين محمد بن مصلح الشيخ زاده، حاشية الشيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ج٣، ص٢٤٠.
(٣) محمد أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، دار الفرقان، عمان، ص٨٦ (بتصرف).
(٤) لمزيد من الاطلاع حول نظام العقوبات في القرآن وكونه علاج وقاية للظلم.

فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. .. ﴾ [سورة النور:الآيتان ٣٠-٣١] .

---

*أنظر * مهدية الزميلي، منهج الاسلام في مكافحة الجريمة، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، كلية الشريعة، عمان، الأردن، ١٩٩٧.

الفصل الخامس

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في هلاك الأمم ;

المبحث الأول

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخطورة تركه

المبحث الأول: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخطورة تركه

أشار القرآن الكريم إلى قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين انها من لوازم حياة البشر وضروراتها، وقد بعث الله سيدنا محمداً ﷺ آمراً إياه بتطبيق ذلك وداعياً أمته للاقتداء به لما في ذلك حفظاً للدين وبقاء حياة الناس نقية من أن يعتريها الفساد، وقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهذه القضية التي تعتبر من الخصائص الأولى للأمة المسلمة على مر العصور، فذكر لنا من الأمم السابقة التي أهملت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أضحى الفساد والمنكر الطابع لحياتها الأمر الذي جعلها مستحقة لنزول العقاب بها.

ولابد من بيان المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

"فالمعروف: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس[(١)]، والمنكر: هو كل ما قبّحه الشرع وحرّمه وكرّهه[(٢)]".

وقد عُرّف بتعريف آخر وهو أن "المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه[(٣)]، والمنكر: كل شيء تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف على استقباحه العقول وتحكم بقبحه الشريعة"[(٤)].

وقد عرّفه الطبري فقال: "وأصل المعروف كل ما كان معروفاً فعله، جميلاً مستحسناً غير مستقبح في أهل الإيمان بالله وإنما سميت طاعة الله معروفاً لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر ما أنكره الله، ورأوه قبيحاً فعله، ولذلك سميت معصية الله منكراً لأن أهل الإيمان يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها"[(٥)].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص١٥٥، مصدر سابق.
(٢) المصدر ذاته، ج١٤، ص٢٨٢.
(٣) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ج٣، ص٧٦، مصدر سابق.
(٤) المصدر ذاته، ج٤، ص٢٥٢-٢٥٣.
(٥) الطبري، جامع البيان، ج٣، ص٣٩٢، مصدر سابق.

ويعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً من الأصول التي لا تستغني عنها أمة من الأمم بل إن جميع الرسل كانت وظيفتهم أمر أقوامهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

قال تعالى مبيناً وظيفة الرسل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل:الآية ٣٦] .

قال الزمخشري: "ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت"(١).

وقال محمد رشيد رضا "وقد جرت سنة الأنبياء و المرسلين والسلف الصالح على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان محفوفا بالمكاره والمخاوف"(٢).

ولذا فقد "أبرز الرسل صلوات الله عليهم قضية النصح في ثوب جميل ينم عن أنبل المقاصد والأهداف، والمرسلون جميعا صادقون فيما يبلغون عن ربهم من رسالات، أمناء فيما أوحي به إليهم لا يطلبون دينا عما يبلغون وينصحون وإنما أجورهم على الله الذي فطرهم وأرسلهم لتصلح بهم الحياة وهم جميعا يضربون المثل الأعلى في النصح:

(أ) سلوكا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(ب) عملا بالأسوة الحسنة التي يعرف الناس بها جادة الطريق.

(ج) تعبيدا لهذا الطريق بالأداء وبالخلق، ليسلكه الناس جميعا آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

(د) وكلهم يقول ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء:الآية ١٠٩] (٣).

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٦٥، مصدر سابق.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٤،ص٢٧، مصدر سابق.

(٣) محمد علي مسعود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس، ص١٤.

وقد بيّن سيدنا محمد ﷺ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعن ابــن مســعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا وكان له حواريــون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلــون، ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فــهو مؤمــن، ومــن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"(١).

ففي هذا الحديث "أخبر سيدنا النبي ﷺ بأنه ما من نبي إلا وله حواريــون أي نصــراء لدعوته ومُعينون له، ثم بعد ذلك يأتي أناس يخالفون منهج الإسلام فيقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم - هؤلاء المخالفين لمنهج الإسلام - بأن أخذ على أيديهم فــأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فهو مؤمن، وقد بيّن عليه الصلاة والسلام بأن أنواع جهاد هــؤلاء المخالفين لتعاليم الإسلام ثلاثة:

الأول: الجهاد باليد لمن يستطع ذلك وهو خاص بالحكام ومن على شاكلتهم.

الثاني: الجهاد باللسان، أي بالكلمة الطيبة، والحكمة والموعظة الحسنة، وهو خــاص بالعلمــاء والخطباء والوعاظ ومن على شاكلتهم.

الثالث: الجهاد بالقلب، أي الإنكار عليهم بالقلب وهذه آخر مرتبة من مراتب الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر، وليس بعدها حبة خردل من الإيمان"(٢).

ولهذا فإن التقاعس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معصية كبيرة وذنب عظيــم ولا يمكن للأمة أن تقوم لها قائمة مالم تطبقها في حياتها، فبها يحفظ أمر المجتمع من الانحــلال والتردي والسقوط، ويأمّن الناس من حلول الهلاك العام والعقاب الشامل الذي يعــمّ الصــالحين وغيرهم. قال تعــالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٢٥] . وقال تعــالى ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم(٥٠)، ص٤٢. .

(٢) محمد سالم محيسن، في رحاب الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشــر، الإســكندرية، ١٩٨٥م، ص١١٥-١١٦.

قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة هود:الآيتان ١١٦-١١٧].

وقد سمّى الإمام الغزالي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقطب الأعظم في الدين فقال: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهمة التي ابتعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه واهمل عمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التنادِ"(١).

ومما يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن الله عز وجل جعل خيرية هذه الأمة مرتبطاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١١٠] .

يقول الإمام الغزالي معلقاً على هذه الآية "وهذا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بيّن أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس"(٢).

ومما يدل أيضاً على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الآية أنه "قدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان مقدّم في كل الطاعات، لأنهما سياج الإيمان وحفاظه، فكان تقديمه في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه"(٣).

ويقول الآلوسي مبيناً حكمة ذلك "وإنما أخّر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة كما هو الظاهر لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون

---

(١) محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط١، دار الفكر، عمان، ١٩٨٦م، ج٢، ص٣٣٣.
(٢) المصدر ذاته، ج٢، ص٣٣٤.
(٣) المراغي، تفسير المراغي، ج٢، ص٢٥، مرجع سابق.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهما أظهر في الدلالة على الخيرية، ويجوز أن يقال قدمهما عليه للاهتمام وكون سوق الكلام لأجلهما، ويجوز أن يكون ذلك للتنبيه على أن جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين أظهر مما اشتمل عليه الإيمان بالله لأنه من وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"(١).

ولهذا فقد جعل ابن تيمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة من الضرورات البشرية فقال "وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر به الله ورسوله وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله ويُؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، ويُنهى عن المنكر الذي نها عنه الله ورسوله وإلا فلا بد من أن يأمر وينهى ويُؤمر ويُنهى إما بما يضاد ذلك، وأما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم يُنزله الله"(٢).

وقد جعل الله عز وجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبباً للنصر ومقوماً من مقومات التمكين في الأرض للدلالة على أهميته وعظم شأنه فقال تعالى ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝ ﴾ [سورة الحج:الآيتان ٤٠-٤١].

يقول محمد رشيد رضا "وقد جعل الله هذه الأربع غاية للأذن للمؤمنين بقتال من يقاتلونهم ويعادونهم في الدين وسبباً لنصرهم وتمكينهم في الأرض بالملك والسيادة، إذ نزل بعد أول ما نزل من الإذن لهم في القتال ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [سورة الحج:الآية ٤١] وبهذه الصفات فتح

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، ج٤، ص٣٣٣، مصدر سابق.
(٢) ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مكتبة المدني، جدة، ص٨٠.

المسلمون الفتوحات، ودانت لهم الأمم طوعاً، وبتركها سلب أكثر ملكهم، والباقي على وشك الزوال، إن لم يتوبوا إلى ربهم ويرجعوا إلى هداية دينهم، ولا سيما إقامة هذه الأركان منه"[١].

وقد أوجب الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل زمان ومكان "فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس موقوتاً بزمان بل هو تشريع ماض في الأزمنة والأمكنة"[٢].

وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً فقال فيما أخرج البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَنْ فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"[٣].

"والمجتمع كله هذه السفينة يركب على ظهرها البر والفاجر، فإن ترك العقلاء الصالحون العصاة المنحرفين يعبثون في السفينة ويخرقونها فإن السفينة ستغرق ولن ينجو أحد"[٤]، "ولو تركنا هؤلاء العصاة أو المنحرفين دون توجيه أو إرشاد لفشت فينا أمراضهم الاجتماعية وأضرت بالبلاد والعباد وفي نهينا لهم عن المنكر درء لعذاب الله عن أنفسنا"[٥].

ولبيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قرن الله عز وجل قتل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالكفر وقتل الأنبياء، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآيتان ٢١-٢٢] . يقول القرطبي:

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١٠، ص٤٧٢، مرجع سابق.
(٢) محمد علي مسعود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٣١، مرجع سابق.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الشركه، باب هل يقرع في القسمه والاستهام فيه، رقم(٢٤٩٣)، ص ٤٧١-٤٧٢.
(٤) عبد الله سليمان المشوخي، مجتمعنا المعاصر، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧م، ص١٨٢.
(٥) محمد علي مسعود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٣١، مرجع سابق.

"دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة"(١). ويقول سيد قطب "وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بقتل النبيين بغير حق – وما يمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق – وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط... ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك، فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية – بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام – وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط.. كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع... وكثير ما هم في كل زمان..."(٢).

وقد اعتبر القرآن الكريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور فقال تعالى على لسان سيدنا لقمان عليه السلام ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة لقمان:الآية ١٧] .

يقول ابن كثير في قوله "وأمر بالمعروف وانه عن المنكر" أي بحسب طاقتك وجهدك "واصبر على ما أصابك" علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لابد أن يناله من الناس أذى فامره بالصبر وقوله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة لقمان:الآية ١٧] أي الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور"(٣).

ونلاحظ في الآية الكريمة أنه قدم الصلاة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك لأن "المخاطب في هذه الآية صغير، لابدَّ أن يتدرب أولاً وقبل كل شيء على أداء الصلاة، فإذا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٤٧، مرجع سابق.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٣٨١-٣٨٢، مرجع سابق.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٦، ص٣٣٨، مصدر سابق.

شب عن الطوق، وقوي عوده وصلب ديناً وفكراً وخلقاً... وترعرع في رياض الإسلام، وعلى نظامه ومبادئه، وتولى هو وإخوانه قيادة الأمة، وأمانة الحكم، كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخطر ما يحملون من تلك الأمانة"(١).

يقول سيد قطب "وهذا هو طريق العقيدة المرسوم، توحيد الله، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله وخشية من عقابه ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر بالزاد الأصيل زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وأعراضها، ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء. "إن ذلك من عزم الأمور" وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم"(٢).

إن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي أمة من الأمم نذير لها بالهلاك، ذلك أنه لن يستقيم أمرها ولن تقوم لها قائمة ولن تأخذ مكانها وعزتها بين الأمم مالم تقم بهذه الوظيفة، ولا شك أن تركها أيضاً يعود على الأمة بنتائج وخيمة تؤدي إلى ضعف الأمة وتفككها لأنه القطب الأعظم في الدين كما سمّاه الغزالي ومن هنا "فإن الضرر الذي يلحق المجتمعات مما يواجهها من المعوقات التي تضر بأخلاقها الإسلامية أشد ضراوة من المعوقات التي تواجهها صحياً وعلمياً واقتصادياً لأن الدين والأخلاق بالنسبة للأمة التي تريد التمام في بنائها الحضاري وفي قوتها المعنوية والمادية هو كل شيء في حياتها وما بعده تبع له، وإذا أردنا أن نبني مجتمعاً

(١) محمد الوحيدي، الأمة المسلمة في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت، المفرق، ٢٠٠٠م.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٧٩٠، مرجع سابق.

فاضلاً وأغفلنا الناحية الدينية، فإننا نكون قد بنينا حضارتنا على شفا جرف هار فانهار بما فوقه على رؤوسنا، وحينئذ تكون الأمة الهزيلة الضعيفة التي لا تستطيع الصمود في معترك الحياة"[١]. ويقول طنطاوي جوهري مبيناً خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "إذا لم يأمر الآمرون بالمعروف وينهى الناهون عن المنكر خسروا الدنيا والآخرة وباؤوا بغضب يحارب ضمائرهم وخسارة تنقص أموالهم وقتل يحصد رؤوسهم وانتهاك لحرماتهم وصبت اللعنة عليهم والعذاب المهين"[٢].

قال تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٢٥] .

قال ابن عباس "أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب"[٣].

وقال القرطبي "ومقصود الآية: واتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح"[٤].

"وقد توعد الله سبحانه وتعالى هذه الأمة أن يصيبها ما أصاب الأمم السابقة إذا تركت واجب الأمر بالمعروف وسكتت عن الإنكار على العصاة وأن هذا العقاب لن تختص به فئة دون الأخرى بل سيشمل العذاب الجميع كما حدث لثمود قوم صالح عندما عقر الناقة رجل واحد منهم، ولكن العذاب نزل عليهم جميعاً لأنهم أقروه على فعله ورضوا به ولم ينهوه عن ذلك"[٥].

كما رويت أحاديث كثيرة بيّنت خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فعن مجاهد قال: حدثني مولى لنا أنه سمع عدياً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول "إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة"[٦].

---

(١) محمد علي مسعود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٥٤، مرجع سابق.
(٢) طنطاوي جوهري، نهضة الأمة وحياتها، مطبعة اللواء، القاهرة، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ص٤.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٤، ص٣٨، مصدر سابق.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص٣٩٣، مصدر سابق.
(٥) بدرية سعود محمد البشر، فقه إنكار المنكر، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠١م، ص٢٦.
(٦) رواه أحمد رقم (١٧٦٥٠)، ج١٣، ص٤٧٣، دار الحديث، القاهرة، تحقيق أحمد الزين.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال "يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [سورة المائدة:الآية ١٠٥] فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم بعذاب من عنده"(١).

"والمتأمل في هذا الحديث النبوي الكريم يلاحظ أن الإسلام لا يكتفي من الشخص أن يكون صالحاً في نفسه فقط، بل لابد أن يكون مصلحاً، بمعنى لابد أن يكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر وإلا فإن غضب الله يوشك أن يعمهم جميعاً لأن الساكت عن الشر شريك له"(٢).

يقول سيد قطب "إن هذه الآية الواحدة* تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى، إن الأمة المسلمة هي حزب الله، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان، ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك في عقيدة، ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة، ولا اشتراك في تبعة أو جزاء.

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها، وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدى الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها.. ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى.

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى، والهدى هو دينها وشريعتها ونظامها، فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة، وأن تحاول هدايتهم، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم، ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن باب نزول العذاب إذا لم يغيروا المنكر، رقم(٢١٦٨)، ص ٤٩٨/ وسنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي رقم (٤٣٣٨)، ص٦٠٩ / وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج٢، ص١٣٣٧.

(٢) عبد الله سليمان المشوخي، مجتمعنا المعاصر، ص٨٢، مرجع سابق.

* قال تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** [المائدة: ١٠٥].

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتـــدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولاً، ثم في الأرض جميعاً... وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية الكريمة كما فـــهم بعضـــهم قديماً – وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثاً – أن المؤمن الفرد غير مكلف بـــالأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر – إذا اهتدى هو بذاته – ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة اقامة شريعة الله في الأرض – إذا هي اهتدت بذاتها – وضل الناس من حولها"(١).

كما روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن جرير عن أبيه قال: سمعت رســول الله ﷺ يقول "ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا"(٢).

ومن هنا فإن "ترك الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجعلها تستحق العقوبة من الله سبحانه وتعالى ولا تختص هذه العقوبة بفئة دون الأخرى بل تعمهم جميعا"(٣).

كما أن من مظاهر خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدم إجابة دعــوى الصالحين "فإذا تهاون الناس عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر وأصيـــب الناس بالذل والهوان وأخذ الصالحون يدعون الله، فإن الله سبحانه لا يستجيب لهم"(٤).

لقول النبي ﷺ "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكـــم عقاباً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم"(٥).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٢، ص٩٩٢، مرجع سابق.
(٢) سنن أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم(٤٣٣٩)، ص٦١٠.
(٣) بدرية سعود، فقه إنكار المنكر، ص٢٨، مرجع سابق.
(٤) عبد الله سليمان المشوخي، مجتمعنا المعاصر، ص١٨٤، مرجع سابق.
(٥) سنن الترمذي، كتاب الفتق، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم(٢١٦١)، ص٤٩٥.

"فهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لرضى الله سبحانه وتعالى واستجابة لدعاء خلقه، أما إن تركوا هذه الشعيرة وأهملوها فإنه يخشى عليهم من عقاب الله وحينئذ لا ينفع الندم ولا يغنيهم دعاء الله تضرعاً بأن ينجيهم من البلاء بعد أن يحل بهم، إن عدم استجابة الدعاء هو نتيجة لعموم الفساد وانتشاره بين الناس، وإذا حدث ذلك فهو الشر المبين الذي ذكره الرسول ﷺ فزعاً، يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج ومأجوج مثل هذه.. وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث"(١). فهنا يخبر ﷺ أن المصيبة تعم الأمة كلها إذا كثر الخبث والفساد بسبب عدم قيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(٢).

كما أن من نتائج خطورة ترك الإنكار "اعتياد النفوس على المعاصي وإحاطتها بالقلوب إحاطة السوار بالمعصم حتى تغلب عليها وتميتها. قال تعالى ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين:الآية ١٤] ، أي من كثرة ما اكتسبوا من المعاصي وفعلوا من الذنوب طبع الله على قلوبهم فلم تعد تعي خيرا أو يثبت فيها صلاحا، فللمعاصي من الآثار المضرة للقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يحصى ولم يحدث بلاء في الأرض إلا وسببه المعاصي التي غطت القلوب وأحكمت عليها الأقفال"(٣).

وقد جاء عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو فزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذي ذكره الله في كتابه ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين:الآية ١٤]"(٤).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج وماجوج، رقم(٣٣٤٦)، ص ٦٣٩-٦٤٠.
(٢) بدرية سعود، فقه إنكار المنكر، ص٣٦-٣٧، مرجع سابق.
(٣) بدرية سعود، فقه إنكار المنكر، ص٢٩-٣٠، مرجع سابق.
(٤) سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب تفسير سورة ويل للمطففين، رقم (٣٣٤٣)، ص٧٦١.

"كما أن التهاون في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى تطاول أهل الباطل في باطلهم والتجرؤ على اقتراف المنكرات، فالعاصي حين يعلم أن فعله الشائن لن يؤاخذ عليه فإنه يقترف المعصية بكل جرأة ووقاحة أمام أعين الناس دون أي اعتبار، بل ومستهزئا بكل القيم والمثل والأخلاق والآداب الإسلامية، أما إذا علم أن المجتمع سيؤاخذه ويأخذ على يديه ويقصره على الحق فإنه بلا شك سيرتدع"[(١)].

كما أن من نتائج التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عذاب الاستئصال المعنوي فقد "كانت الأمم الماضية إذا كذبت رسولها وعتت عن أمر ربها، أرسل الله عليها عذابا يهلكها ويطهر وجه الأرض من رجسها، كما حدث للمكذبين من قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط عليهم وعلى رسولنا الصلاة والسلام. قال تعالى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:الآية ٤٠] ، وإكراما لنبينا محمد ﷺ رفع الله عن أمته عذاب الاستئصال الحسي الذي كان يحل بالمكذبين من الأمم الماضية والقرون الخالية ولئن رفع هذا النوع من العذاب فقد بقي نوع آخر لم يرفع هو عذاب الاستئصال المعنوي، ونعني بهذا أنه قد تبقى هذه الأمة على قيد الحياة مهما عملت من معاص وارتكبت من موجبات الهلاك – ولا تعاقب بالفناء، لكنها على كثرتها في العدد والأموال لا تعدل في ميزان الله ولا عند الناس شيئا، ليس لها هيبة في نفوس أعدائها ولا احترام في نفوس أصدقائها"[(٢)].

كما أن من نتائج التهاون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعل البأس فيما بينهم، "من المعلوم بداهة أن أعظم المنكرات وأقبحها استبعاد شرع الله عن واقع الحياة، وعدم تحكيمه

---

(١) عبد الله سليمان المشوخي، مجتمعنا المعاصر، ص١٨٥، مرجع سابق.
(٢) محمد أبو فارس، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ط٤، دار الفرقان، الأردن، ١٩٨٧م، ص٥٥-٥٦.

في حياة الناس، فإذا حصل هذا وسكت الناس عنه ولم ينكروه ولم يقاوموه فإن الله سبحانه وتعالى يجعل بأسهم بينهم، حيث يدب الخلاف والشقاق وفساد ذات البين حتى يقتلوا أو يسفكوا دماء بعضهم بعضا، والأصل أن يكون بأسهم على عدوهم تقتيلا وتشريدا"(١).

كما أن التهاون في القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتشار الفساد في الأرض، قال تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [سورة هود:الآية ١١٦] .

والنهي عن الفساد يؤمن الناس من عقاب الله عز وجل. قال تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝ ﴾ [سورة القصص:الآية ٥٩] .

"وهكذا فإن إصلاح الدنيا والدين يتطلب إقامة هذا الواجب والقيام به حق قيامه بالأمر بالمعروف والدعوة إليه والترغيب فيه والتمهيد لأسبابه وطرق سبله والنهي عن المنكر وصده والتحذير منه ومنع أسبابه حتى لا يقع أصلا فإذا وقع فلا بد من مقاومته حتى لا يقوى وتضيق دائرته حتى لا يتسع وأخذ السبل عليه حتى لا يتكرر لأنه إذا تكرر فعله وظهر أصبح معروفا بين الناس وحينئذ يصير المعروف منكرا ويعود الدين غريبا كما بدأ"(٢).

إن " القيام بهذه الفريضة من شأنه أن يعزز قوة المسلمين ويجعلهم قادرين على الوقوف في وجه الكفر ومحاربة المعاصي الظاهرة في المجتمع، ووضع حد لهذا السيل الجارف من المغريات التي تجذب ضعاف النفوس حتى ينحدروا في هاوية الضياع ويبتعدوا عن قرآنهم وينسوا هويتهم، ثم يستيقظوا فجأة وهم بلا دين ولا وطن، فلابد أن ينهض الدعاة إلى الله والمحتسبون لكي يعيدوا المسلمين إلى الإسلام الحق، بأمرهم بالتمسك بالدين الذي هو وحده الذي سيحقق لهم الأمن والرخاء والسعادة الأبدية، ونهاهم عن الاستماع إلى دعايات المغرضين وإغراءات أعداء الدين التي ظاهرها السعي لصالح الناس وتحقيق الرفاهية لهم، وباطنها ضرر

---

(١) المرجع ذاته، ص٥٤.
(٢) عادل السكري، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٣٥، مرجع سابق.

الناس وخدمة مصالح أعداء الإسلام والمذاهب الحاقدة على الإسلام التي غايتها وأملها ألا يسمع صوته في بقعة من بقاع الأرض"[١].

لقد حرصت الأيات القرأنية على بيان أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الدين، بل هو القطب الأعظم في الدين وهو نعت النبي والمؤمنين، وبه فرق الله بين المؤمنين والمنافقين، وهو خلافة عن الله الذي يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر، وخلافة عن الرسول الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وهو السر الذي جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، والسبب في نصر الله وتمكينه في الدنيا والآخرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصديق للإيمان ودليل على حب الله وخشيته وسبيل إلى استجابة الدعوة وقبول التوبة وهو حق للمسلم على أخيه وواجب عليه أن يقوم به ويؤديه حتى يشد ظهر المؤمن ويرغم أنف المنافق وهو من النصيحة في الدين"[٢].

---

(١) بدرية سعود، فقه إنكار المنكر، ص٣١، مرجع سابق.
(٢) عادل السكري، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٣م، ص٢٧.

المبحث الثاني

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
من خصائص الأمة الإسلامية

المبحث الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص الأمة الإسلامية

وضح القرآن الكريم دعوة الانبياء والمرسلين جميعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز خصائص الأمة الإسلامية، وقد وصف الله تعالى نبي هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف:الآية ١٥٧]

"يقول تعالى ذكره: يأمر هذا النبي الأمي أتباعه بالمعروف وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك "المعروف" الذي يأمرهم به، "وينهاهم عن المنكر" وهو الشرك بالله والانتهاء عما نهاهم الله عنه"(١).

ويقول ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] "هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله ﷺ لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر"(٢).

كما جعل الله عز وجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٧١] .

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٦، ص٨٥، مصدر سابق.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٨٧، مصدر سابق.

ففي هذه الآية "نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فالذي هجـــر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية"(١).

قال الرازي "فذكر هذه الأمور الخمسة التي يتميز بها المؤمن من المنافق، فالمنــــافق – على ما وصفه الله تعالى في الآية المتقدمة – يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف والمؤمن بالضد منه"(٢).

ويقول محمد رشيد رضا "كما أن المنافقين يأمرون بالمنكر وينـــهون عــن المعــروف وهاتان الصفتان من أخص صفات المؤمنين التي يمتازون بها عن المنافقين وعلى غيرهم مـــن الكفار وهما سياج حفظ الفضائل ومنع فشو الرذائل"(٣).

وقـــال تعـــــالى أيضـــا ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ١١٢] .

قال ابن كثير "هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفـــات الجميلة والخلال الجليله"(٤).

وقال الرازي "اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى* أنه اشترى من المؤمنين أنفســهم وأموالهم بأن لهم الجنة، بين في هذه الآية أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بـــهذه الصفـــات التسعة"(٥).

وقال تعالى ﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

---

(١) محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٣٤، مصدر سابق.
(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج٦، ص١٠٠-١٠١، مصدر سابق.
(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١٠، ص٧٤٢، مرجع سابق.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢١٩، مصدر سابق.
* قوله تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقـــاتلون فـــي ســـبيل الله...﴾** [التوبة: ١١١].
(٥) الرازي، التفسير الكبير، ج٦، ص١٥٢، مصدر سابق.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآيتان ١١٣-١١٤] . "وهي صورة مضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب فقد آمنوا إيمانا صادقا عميقا وكاملا شاملا وانضموا للصف المسلم وقاموا على حراسة هذا الدين... آمنوا بالله واليوم الآخر.. وقد نهضوا بتكاليف الإيمان، وحققوا سمة الأمة المسلمة التي انضموا إليها - خير أمة أخرجت للناس - فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.. وقد رغبت نفوسهم في الخير جملة، فجعلوه الهدف الذي يسابقون فيه، فسارعوا في الخيرات ومن ثم هذه الشهادة العلوية، لهم أنهم من الصالحين وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يبخسوا حقا ولن يكفروا أجرا مع الإشارة إلى أن الله سبحانه علم أنهم من المتقين، وهي صورة ترفع أمام الراغبين في هذه الشهادة، وفي هذا الوعد، ليتحققها في ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضيىء في أفقها المنير"(١).

يقول الغزالي "فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(٢).

---

١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١، ص٤٥٠، مرجع سابق.
٢) محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٣٤، مصدر سابق.

المبحث الثالث

دور ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هلاك بني إسرائيل

المبحث الثالث: دور ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هلاك بني إسرائيل

إن "قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمس الإيمان في الصميم كما بين الله عز وجل ذلك في قوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١١٠] ، فإذا ما رأينا إيمانا وحبا ووفاء في أمة من الأمم فمعنى هذا أنها أمة واحدة متكاملة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وإذا وجدنا مذاهب شتى ورأينا كلا يغني على ليلاه ورأينا الأمة في جانب وكتاب الله وسنة رسوله في جانب آخر، ورأينا عصيانا وتمردا على شرع الله فإن النقص قد دخل هذه الأمة لأنها تركت منهج الأمر والنهي"[١].

ولذا فإن النقص قد دخل بني على إسرائيل لأنهم تعالوا على شرع الله فلم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر "وأن الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل تعطي مفهوما واضحا عن طبيعتهم وفسادهم، فالعصيان والفساد متلازمان مع تاريخ هذا الشعب ومظاهر فسادهم كثيرة، والكفر والمعصية صفة لا تفارقهم"[٢]. كما أن لهم دورا في تقويض حضارات الأمم بالإفساد وتدمير الأخلاق التي تعتبر من أهم القواعد التي تسير عليها الأمم التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. "فالسياج الذي يحمي الأمم من الانحلال والدمار هو سياج العقيدة والسياج الخلقي المنبثق منها، ولا تخلو أمة من عقائد تحيط أفرادها بنوع من التنظيم، تتوجه فيها مشاعرها إلى مقدسات تقدسها وتنبثق منها أخلاق يلتزم بها الأفراد لتنظيم صلاتهم وحجر بعضهم عن بعض في الإعراض والدماء والأموال والعقائد المنزلة على أنبياء الله ورسله على

---

(١) محمد علي مسعود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٤٠، مرجع سابق.
(٢) فيروز الشيشاني، دراسة تحليلية وموضوعية لسورة الإسراء، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦م، ص١٥٧.

رأس هذه العقائد، وكلهم قد جاء بعقيدة التوحيد، ومن هذه العقيدة انبثقت الأخلاق الربانية من الصدق والكرم والشجاعة والإيثار والوفاء بالعهد والتواضع"(١).

ويظهر فساد بني إسرائيل في عدة جوانب منها: -

"١- موقفهم من الله تعالى:

أ- بنقضهم لعهد الله.

قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢٧] .

ب- افترائهم الكذب على الله وتكذيبهم بآيات الله:

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الأنعام:الآية ٢١] .

ج- وصفهم الله تعالى بصفات لا تليق بذاته جل جلاله:

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ .. ﴾ [سورة المائدة:الآية ٦٤] .

د- الشرك بالله تعالى واتخاذ الأرباب من دونه:

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ .. . ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣٠] .

قال تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ .. . ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣١] .

٢- موقفهم من الملائكة ومعاداتهم لجبريل عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآيتان ٩٧-٩٨] .

---

(١) مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩م، ص١٨٩.

٣- موقفهم من الكتب السماوية بكفرهم بها وتحريفهم لكلام الله تعالى.

قال تعالى ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٤١] .

قال تعالى ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ . . . ﴾ [سورة المائدة:الآية ١٣] .

٤- موقفهم من الأنبياء والرسل بقتل الأنبياء وتكذيبهم ومعاداتهم.

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ٢١] .

قال تعالى ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١١٢] .

٥- موقفهم من اليوم الآخر وكفرهم به.

قال تعالى ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ٣٩] .

٦- موقفهم من المؤمنين بنبذهم عهودهم ورغبتهم في رد المؤمنين عن إيمانهم حسدا منهم، ونقمة على المؤمنين بسبب إيمانهم.

قال تعالى ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٠٠] .

قال تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ . . ﴿١٠٩﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٠٩] .

قال تعالى ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٨٢] .

٧- موقفهم من المقدسات الإسلامية بمنع إقامة شعائر الله فيها والاعتداء عليها بالتخريب والتدمير.

قـال تعـالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١١٤] "(١).

إن المتدبر للآيات السابقة ليجد بأنها ركزت على "طبيعتهم العدوانية وصفاتهم الذميمة من الكفر والكذب والغدر والخيانة ونقض العهد وتحريف الكلم عن مواضعه وسوء الخلق، والفحش والتفحش والاستهانة بالحق وأهله والاستهزاء بالأنبياء والشغب عليهم بصور كثيرة، والتآمر عليهم وسفك دمائهم ودماء الذين يأمرون الناس بالقسط"(٢).

ولقد حذر القرآن الكريم من التخلي عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا يعمها الله بعذاب كما حل ببني إسرائيل لما تخلوا عن منهج الأمر والنهي.

قال تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة المائدة:الآيتان ٧٨-٧٩] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما "لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان"(٣).

وقال الطبري: "يقول تعالى ذكره: كان هؤلاء اليهود الذين لعنهم الله "لا يتناهون" يقول: لا ينتهون عن منكر فعلوه ولا ينهى بعضهم بعضا، ويعني بالمنكر: المعاصي التي كانوا يعصون الله بها، فتأويل الكلام: كانوا لا ينتهون عن منكر أتوه لبئس ما كانوا يفعلون، وهذا قسم من الله تعالى ذكره، يقول: أقسم لبئس الفعل كانوا يفعلون في تركهم الانتهاء عن معاصي الله تبارك وتعالى وركوب محارمه وقتل أنبياء الله ورسله"(٤).

---

(١) فيروز الشيشاني، دراسة تحليلية وموضوعية لسورة الاسراء،ص١٥٧-١٥٩، مرجع سابق.
(٢) محمد أبو فارس، شغب اليهود على الأنبياء، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٨م، ص٩.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص١٦٠، مصدر سابق.
(٤) الطبري، جامع البيان، ج٤، ص٦٥٩، مصدر سابق.

كما حذر النبي أمته من تخليها عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا يعمها الله بعقاب من عنده كما حصل مع بني إسرائيل، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ إلى قوله ﴿فاسقون﴾ ثم قال كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا"(١).

"لتأطرنه على الحق أطرا" قال الخطابي أي لتردنه على الحق وأصل الأطر العطف والتثني "ولتقصرنه على الحق قصرا" أي لتحبسنه عليه وتلزمنه إياه"(٢).

في هذا الحديث أخبر النبي ﷺ "بأن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أن العالم بأمور الدين منهم كان يلقى الرجل المخالف لتعاليم دينه فيقول له: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، أي اترك عملك الفاسد فإنه لا يحل لك ذلك ثم بعد ذلك يصادقه مع اقترانه للمعاصي ولا ينكر عليه وكانت نتيجة ذلك أن طردهم الله من رحمته وسجل عليهم لعنته"(٣) "لما فعلوا من عدم التناهي عن المنكرات والجرأة على ممارستها علنا وجهارا دون حياء أو خوف منه، فأصبح الناس يرونها ويسمعونها حتى ألفوها وزال قبحها من نفوسهم بل أحبوها وتمكنت من قلوبهم

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم(٤٣٣٦)، ص٦٠٩.
(٢) عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ج١١، ص٤٨، دار الفكر.
(٣) محمد سالم محيسن، في رحاب الإسلام، ص١١٧، مرجع سابق.

حتى باتت عملا من أعمالهم اليومية وأنكروا على من يأمرهم بتركها ممن بقي عنده بقية من علم بتحريمها"[١].

إن نجاة أمتنا تكون بإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة العامة والخاصة حسب الطاقة المتاحة والظروف المعاشة حتى لا يصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا فتتخبط الأمة في ظلمات الفساد والظلم، بل تحذر من ذلك حتى لا ينالها العقاب الإلهي.

---

(١) بدرية محمد، فقه إنكار المنكر، ص٢٤، مرجع سابق.

الفصل السادس

ترك الجهاد وأثره في هلاك الأمم

المبحث الأول

أهمية الجهاد وخطورة تركه
في القرآن الكريم

المبحث الأول: أهمية الجهاد وخطورة تركه في القرآن الكريم

يعتبر الجهاد في سبيل الله من أهم أسباب صلاح الأمة وبقائها عزيزة قوية، تخفق راية الحق فوق روابيها، والحديث عن الجهاد بكل جوانبه أمر لا يحتمله هذا الفصل المتواضع، وذلك لأن الجهاد في الإسلام له أهمية عظيمة فهو جزء من العقيدة الإسلامية ومن رسالة الأمة المسلمة، لذا ساعرض له بالقدر الذي أراه يخدم الأمر الذي أريد تقريره وهو أن الجهاد عماد من أعمدة الصلاح في الأمة ومقوم أساسي في وجودها وقوتها، لأنه أمر بمعروف فعلي في ساحة القتال، فمن أنكر المنكرات احتلال الأرض والافساد فيها فمتى نحته عن حياتها حل بها الهوان ولحقها العذاب.

ومعنى الجهاد لغة، قال ابن منظور: "الجهد الجهد: الطاقة، تقول: أجهد جهدك، وقيل الجهد: المشقة، والجهد: الطاقة، قال الليث: الجهد: ما جهد الإنسان من مرض أو أمر؛ فهو مجهود، قال والجهد لغة بهذا المعنى.

وقيل إذا كان المعنى هو المشقة أو الغاية فالفتح لا غير، وإذا كان الوسع والطاقة فيجوز الفتح والضم"(١).

١- أما المقصود بالجهاد في الإصطلاح، يقول الراغب: "الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع والطاقة في مدافعة العدو(٢).

ومصطلح الجهاد واسع يشمل عدة مجالات، كجهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الفاسقين، وجهاد الظالمين، وجهاد الكافرين، وكله يعتبر أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر.

وعندما يطلق لفظ الجهاد في الشرع يقصد به المعنى الخاص – وهو قتال الكفار – الذي أولاه القرآن الكريم اهتماما خاصا باعتباره أعظم أركان الإسلام، فهو يمثل ذروة سنام الإسلام كما قال عنه رسول الله ﷺ: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد"(٣).

وقد شملت الآيات القرآنية الواردة في الجهاد مساحة واسعة في القرآن مبينة أحكامه ومرغبة فيه، وهذه الآيات موزعة على سور عدة كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والحج... الخ.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص١٣٣، مصدر سابق.
(٢) الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القرآن الكريم، ص٩٩، مصدر سابق.
(٣) الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاه، رقم(٢٦١٦)، ص٥٩٤-٥٩٥.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ١١١] .

والوفاء بالعهد أمر بالمعروف وهو بشرى ببيع النفس لله كما في الآية.

قال الشوكاني: "هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال مالا يخفى، فإنه أولا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وجاء بهذه العبارة الفخيمة، وهو كون الجنة صارت ملكا لهم، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لابد من حصول الموعود به، فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد"(١).

ومن اهتمام السياق القرآني البالغ بأمر الجهاد أن سمى الجهاد بأنه الحياة قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾ [سورة الأنفال:الآية ٢٤] .

وهل تحيى الامة إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقيدة وعبادة وجهادا.

وقد فسر الفخر الرازي الجهاد بالحياة، ثم بين سبب تسمية القرآن الجهاد بالحياة من وجوه هي:

أولها "- هو أنه وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار.

- وثانيها: أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٦٩] .

- وثالثها: أن الجهاد قد يفضي إلى القتل، والقتل قد يوصل إلى الدار الآخرة معدن الحياة. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ ﴾ [سورة العنكبوت:الآية ٦٤] أي الحياة الدائمة"(٢).

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٢، ص٥٧٦، مصدر سابق.
(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج٥، ص٤٧٢، مصدر سابق.

كما رغبت الآيات القرآنية في الجهاد بما يظهر أهميته في حياة الأمة، فوصفه بأنه تجارة رابحة مع الله، فهي ليست كأي تجارة قد تربح أو تخسر، بل هي تجارة رابحة على الدوام. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [سورة الصف:الآيات ١٠-١٣] .

قال الشوكاني: "جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة الرابحة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار"(١).

ومن عظيم أمر الجهاد أن جعله الله تعالى علة في اصطفاء الأمة المؤمنة، قال تعالى: ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [سورة الحج:الآية ٧٨] .

قال الطبري: "هو اختاركم لدينه واصطفاكم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله"(٢).

وللسياق القرآني ميزة أسلوبية خاصة به في بيان أهمية أمر الجهاد وذلك من خلال بيان ثواب المجاهدين وجزائهم، فقد ادخر المولى تعالى لهم أجرا عظيما فخص الشهداء بمنزلة علية لا تدانيها منزلة أيا كانت، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٥٤] . "أبان الله سبحانه في هذه الآية جزاء ما يلاقيه المؤمن في تأييد الدعوة إلى دينه مما يصل به أحيانا إلى القتل والتغلب على من يصد الناس عن الدعوة ويقاتل في الدفاع عن الباطل، فذكر ما أعد الله له من النعيم المقيم، والرزق المتواصل، والحياة التي لا يعرف كنهها إلا علام الغيوب، جزاء ما فعل لتأييد حجة الله البالغة، والجهر بالحق، والصدع بأمر ربه، فكان له مما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر"(٣).

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٥، ص٢٩٥، مصدر سابق.
(٢) الطبري، جامع البيان، ج٩، ص١٩١، مصدر سابق.
(٣) المراغي، تفسير المراغي، ج١، ص٢٠٨، مرجع سابق.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآيات ١٦٩-١٧١] .

قال الشوكاني: "ومعنى الآية عند الجمهور: انهم أحياء حياة محققة ثم اختلفوا، فمنهم من يقول: إنها ترد إليهم أرواحهم في قبورهم، وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها، وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للتنعم في الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد أوردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر في الجنة، وأنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون"(١).

عن مسروق بن الأجدع قال: "سألنا عبد الله وهو ابن مسعود عن هذه الآية:﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ قال: أما إنا سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعه، فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا: قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أنهم ليس بهم حاجة تركوا"(٢).

لقد قدم هؤلاء تضحية عظيمة جليلة، قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله فمن عليهم بهذا الفضل الجزيل، "فما المجاهدون في قانون من شرع الجهاد – وأمر به، إلا أولئك الذين خلصوا لله في سرائرهم، وتحققوا بصفات العبودية له من ظواهرهم، تعلقت منهم الأعين بالآمال بالغد القريب الذي لا ريب فيه، إذ يقوم الناس جميعا لرب العالمين، فهانت عليهم الدنيا بكل متاعها ولذائذها، أيقنوا بقضاء الله المبرم وعلموا أن لكل حي أجلا، وأن لكل أجل كتابا، فلم يرهبهم عراك الموت، ولم يبالوا أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم"(٣).

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج١، ص٦٤٧، مصدر سابق.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الاماره، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم(١٨٨٧)، ص٧٥٤.

(٣) محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣م، ص٤٤٥.

لقد رغب القرآن الكريم بالجهاد من زوايا عدة كزاوية بيان ما أعده الله تعالى للمجاهدين من ثواب، فقد أعد لهم جنات. قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآيتان ٨٨-٨٩] ، "فأولئك المجاهدون في سبيل الله لهم الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر ومحو كلمة الكفر وإعلاء كلمة الله وإقامة الحق والعدل بالمغانم والسيادة في الأرض"[١].

وقد بشرت السنة النبوية الكريمة المجاهدين في سبيل الله بالخير والثواب والجنان فضلا من الله ومنة، وهذه البشرى استغرقت صفحات واسعة وعديدة من السنة النبوية القولية والفعلية، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "تكفل الله لمن جاهد في سبيله ولا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته، أن يدخله الجنة، أو يرده إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة"[٢].

وقد عد النبي ﷺ الجهاد من أفضل أعمال العباد على الإطلاق. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله: أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها، قلت ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت ثم أي قال: الجهاد في سبيل الله..."[٣].

وكان كل هذا الترغيب في أمر الجهاد في سبيل الله والحث عليه بسبب ما يحمل في طياته من مصلحة للمسلمين وتوطيد ركائز عزتهم ورد كيد أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر، قال ابن القيم: "والجهاد من أعظم ما يقرب إلى الله عز وجل وهو ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما أن لهم الرفعة في الدنيا، إنهم الأعلون في الدنيا والآخرة"[٤].

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج٤، ص٢٤١، مرجع سابق.
(٢) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي أحلت لكم الغنائم، رقم(٣١٢٣)، ص٥٩٧.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، رقم ٢٧٨٢، ص٤٦١.
(٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، تحقيق محمد بلتاجي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ج٤، ص٥.

إن الجهاد يمثل روح الأمة المؤمنة، ولا حياة لها إن فقدت تلك الروح، بل ستنزلق في مزالق الفتن والهزائم لذلك حذر القرآن الكريم من ترك الجهاد ورهب منه في آيات قرآنية كثيرة.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٣٩] .

قال الزمخشري: "سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئا"(١).

"إن الخطاب لقوم معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله كل ذوي عقيدة في الله والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات، واستغلالها للمعادين، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء"(٢).

والأمة المسلمة في هذا العصر أمة مهزومة، جثت الهزيمة على صدرها فخنقتها وجعلتها أشبه بجثة هامدة، وكل ذلك بسبب تركها الجهاد، لقد تنكرت عن منهج الخالق سبحانه، فانزلقت في مزالق الذلة والمهانة والهلاك.

قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٩٥] .

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٢٥٩، مصدر سابق.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص١٦٥٥، مرجع سابق.

عن أسلم ابي عمران التجيبي، قال: "كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم، فخرج من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر: عقبة بن عامر، وعلى الجماعة: فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا: سبحان الله: يَلقي بيده في التهلكة؟ فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار: لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله ﷺ : "إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: "وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" فكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصا في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم"[١].

كما بينت الآيات الكريمة أن ترك الجهاد علامة من علامة النفاق قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآيتان ٤٤-٤٥] .

"قال أبو جعفر: هذا إعلام من الله نبيه ﷺ سيما المنافقين: أن من علاماتهم التي يعرفون بها تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، باستئذانهم رسول الله ﷺ في تركهم الخروج معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة"[٢].

"هذه هي القاعدة التي لا تخطئ الذين يؤمنون بالله ويعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافا وثقالا كما أمرهم الله، طاعة لأمره ويقينا بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه، وأنهم ليتطوعون تطوعا فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلا عن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقره، رقم (٢٩٧٢)، ص ٦٦٨-٦٦٩.
(٢) الطبري، جامع البيان، ج٦، ص٣٨١، مصدر سابق.

الإذن لهم، إنما يستأذنك أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين، فهم يتلكأون ويلتمسون المعاذير، لعل عائقا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون"(١).

والمنافقون في كل زمان يجيدون فن الاعتذار عن الجهاد بمعاذير كثيرة، وقد كشف القرآن الكريم أمرهم، فهم أناس فاقدون لروح الجهاد، ولا يجدون في أنفسهم دافعا للتضحية، فليس لهم نصيب من الإيمان بالله والرسول لذلك تجد ثقتهم بالله ووعده ليست راسخة، من أعذارهم الكثيرة التي قالوها معتذرين عن الجهاد. قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٤٢] .

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٤٩] .

فخطرهم كبير على مسيرة الجهاد وذلك بسبب اختلال ولائهم لله وللرسول، وهم على الدوام يمكرون ويكيدون للمجاهدين محاولين زرع بذور الضعف والهوان في الصفوف المجاهدة، وقد بين سياق سورة التوبة شقاق هؤلاء وأنهم امتنعوا عن الخروج مع النبي ﷺ في تبوك، وهو حالهم في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآيتان ٤٦-٤٧] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص٢٦٦٢، مرجع سابق.

إن خروج هؤلاء مع المجاهدين يضعف من الروح المعنوية للجيش لشدة مكرهم وأذاهم فلابد من عزلهم عن جماعة المجاهدين، "لأنهم لو خرجوا مع المسلمين وهم يحملون هذا الداء الخبيث – النفاق – المتمكن فيهم لأفسدوا على المسلمين أمرهم ولأدخلوا عليهم الوهن والضعف في لقاء العدو"(١).

قال تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [سورة المنافقون:الآية ٤] ، "إنهم في غاية الضعف والخور والجبن، يظنون كل صوت كلما وقع أمر، أو كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم، نازلة بهم لفرط جبنهم، ورعب قلوبهم، وفراغهم النفسي، وإحساسهم بالهزيمة من الداخل، فهم الأعداء الالداء"(٢).

وقال تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٥٧] .

قال ابن كثير: "لو يجدون ملجأ" أي حصنا يتحصنون به، وحرز ليحترزون به "أو مغارات" والتي هي في الجبال، أو "مدخلا" وهو السرب في الأرض والنفق"(٣).

فلابد من تطهير ركب الجهاد منهم، أما إن تركوا فخطرهم سيزيد وجهودهم ستثمر وللمنافقين في هذا العصر في أمتنا الصولات والجولات مما زاد من ذل أمتنا وهوانها فتراكم الضعف ضعفا فأضحت الفريسة التي ينالها كل ضعيف خائر جبان، وهذا الحال ليس بالغريب لأنه يمثل النتيجة الحتمية لطي صفحة الجهاد من حياة الأمة، ولا سبيل للخروج من هذا الحال إلا بتسيير ركب الجهاد.

عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن تتداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ! قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن" فقال قائل: يا رسول: وما الوهن؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت"(٤).

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٢، ص٧٩١، مرجع سابق.
(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٢٨، ص٢١٧، مرجع سابق.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٦٣، مصدر سابق.
(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب تداعي الامم على الإسلام، رقم (٤٢٩٧)، ص٦٠٣-٦٠٤.

وقال رسول الله ﷺ محذرا ومرهبا من ترك الجهاد: "إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلم يدفعه حتى يراجعوا دينهم"(١).

وهذا الحال تعانيه أمتنا الآن، فقد اشتغلت بالدنيا عن الجهاد، فضيعت العباد وضيعت البلاد، وأصبح الجميع فينا يعيشون ضيقا وكربا لا يدفع عنهم إلا بالعودة الفعلية إلى منهج الحق، وليس بالتمني يكون ذلك بل بالعزم والتوكل والشجاعة فهم أهل منهج ورسالة حق، "والحق يحتاج إلى من يظهره بأنه حق، وإذا كان حمل ما عدا الحق باطلا وضلالا فإن الأصل الذي تقره العقول أن تتعاون البشرية كلها على إظهار الحق وهيمنته، وعلى طرد الباطل والضلال، لأن سعادة الخلق في ظهور الحق وهيمنته في الأرض، وشقاؤهم في ظهور الضلال والباطل وهيمنتها، ولو أن أغلب الناس وليس كلهم تعاونوا على إظهار الحق وطرد الباطل لذابت القلة الضالة واضمحل شرها، ولكن المؤسف أن أغلب الناس من حزب الضلال والباطل الذي يعادي الحق واهله ويحاربهما دون هواده لأنه – أي حزب الضلال يجهل الحق – ومن جهل شيئا عاداه"(٢).

وكم هي أمتنا اليوم بحاجة إلى من يحيي فيها الروح الجهادية فيوقفها على درب الجهاد، فتحمل الحق وتطبقه وتذود عنه وتجاهد في سبيل رفع رايته في الأرض، وفي حياة النبي ﷺ خير قدوة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:الآية ٢١] ، فالقدوة الحسنة تعد من أفضل البواعث على الجهاد، قال ابن تيمية: "إن من أعظم النعم على من أراد الله به خيرا أن أحياه إلى هذا الوقت، الذي يجدد فيه الدين، ويحيى به شعار المسلمين، وأحوال المؤمنين والمجاهدين حتى يكون شبيها بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ممن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات

---

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، دار العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٣٣ (١٣٥٨٥).
(٣) عبد الله القادري، الجهاد في سبيل الله، ج١، ص٥٥٦، مرجع سابق.

تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، ذلك هو الفوز العظيم، فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله على هذه المنحه، التي في حقيقتها منحة كريمة من الله، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة"(١).

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ثلاث رسائل في الجهاد، تحقيق محمد أبو صعيليك وإبراهيم العلي، ط١، دار النفائس، عمان، ١٩٩٣م، ص٤٤.

المبحث الثاني

التدافع بين الحق والباطل

المبحث الثاني: التدافع بين الحق والباطل

شرع الله الجهاد لدحض الباطل وإعلاء كلمة الحق في الأرض، فصراع الحق والباطل قديم قدم البشرية، وممتد إلى يوم القيامة "وقد شرع الله الجهاد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور من جهة ولتكون كلمة الله هي العليا من جهة ثانية وحماية المسلمين من أن يفتنوا في دينهم أو تستباح حرماتهم وتحتل أراضيهم من جهة ثالثة، وكل هذه الأمور يجب أن تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يمكن استمرار تحقيقها إلا باستمرار الجهاد في سبيل الله.

وقد اقتضت مشيئة الله أن يوجد في الأرض حزبه وحزب الشيطان، وأن يكون بجانب الحق الباطل، وأن يعيش على وجه الأرض محقون ومبطلون، وأن يصطرع هؤلاء من أول

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الحج:الآية ٤٠] .

"أي لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بيّنه أرباب الديانات في مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة، فالجهاد أمر متقدم في الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبّدات، فكأنه قال: أذن القتال فليقاتل المؤمنون، ثم قوى هذا الأمر في القتال بقوله:﴿ولولا دفع الله الناس﴾ الآية، أي لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل أمة، فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه، إذ لولا القتال لما بقي الدين الذي يذب عنه، وأيضاً هذه المواضع التي اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام، إنما ذكرت لهذا المعنى، أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد، "لهدمت" من هدمت البناء أي نقضته فانهدم، قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية"(١).

"والتدافع بين الحق والباطل أي بين أصحابهما أمر لابد منه وحتمي لأنهما ضدان والضدان لا يجتمعان، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، ولا يتصور إذن أن يعيش الحق والباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر"(٢).

وورد في القرآن الكريم ما يدل على ثبات الحق وأصالته في الحياة البشرية واضمحلال الباطل وزواله، قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٢، ص٧٠، مصدر سابق.
(٢) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص٤٦، مرجع سابق.

فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الرعد:الآية ١٧].

"وهذه الآية مثل ضربه الله للحق وأهله وللباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع، وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحلي واتخاذ الأواني والآلات المختلفة وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاءً ظاهراً يثبت الماء في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار، وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة، وشبه الباطل في سرعان اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل وخبث المعدن فإنه وإن علا وارتفع وانتفخ إلا أنه أخيراً يضمحل، وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شيء من الشبهات لأنه لا بقاء إلا للنافع وما تصارع الحق والباطل إلا وفاز الحق بقرنه"(١).

وقال تعالى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:الآية ١٨] .

يقول سيد قطب "والتعبير يرسم هذه السنة – غلبة الحق وزهوق الباطل – في صورة حسية حية متحركة، فكأنما الحق قذيفة في يد القدرة الإلهية تقذف بها على الباطل فيشق دماغه فإذا هو زاهق هالك ذاهب. هذه هي السنة المقررة، فالحق أصيل في طبيعة الكون، عميق في تكوين الوجود، والباطل منفي عن خلقة هذا الكون أصلاً، طارئ لا أصالة فيه، ولا سلطان له،

(١) القاسمي، محاسن التأويل، ج٤، ص٤٤٣، مرجع سابق.

يطارده الله، ويقذف عليه بالحق فيدمغه، ولا بقاء لشيء يطارده الله، ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه.

ولقد يخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العالم الخبير، وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب، ويبدو فيها الحق مزوياً كأنه مغلوب، وإن هي إلا فترة من الزمان يمد الله فيها ما يشاء لمن يشاء للفتنة والابتلاء، ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء.

والمؤمنون لا يخالجهم الشك في صدق وعده، وفي أصالة الحق في بناء الوجود ونظامه وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه"(١).

فصراع الحق والباطل يسير وفق سنة إلهية، وهو صراع تكون الغلبة فيه لأهل الحق كما قرر ذلك المولى عز وجل بقوله: ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ [سورة الشورى:الآية ٢٤] ، قال الرازي: "ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق"(٢).

وقد اهتم القرآن الكريم وفي مواضع عديدة ببيان عاقبة ذلك الصراع ليكون ذلك دافعاً للمؤمنين لمواصلة الجهاد عبر ظروف الحياة المختلفة التي يعيشونها.

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٢] .

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ [سورة المجادلة:الآية ٢١] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [سورة الحج:الآية ٤٠] .

ولابد من إخلاص النية لله تعالى في الجهاد، فمعظم الآيات التي تحدثت عن الجهاد قرن بها لفظ الجلالة للدلالة على عظيم هذا الأمر وخطورته.

قال تعالى: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة النساء:الآية ٧٦] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٣٢٧٢، مرجع سابق.
(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج٩، ص٥٩٦، مصدر سابق.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٤١]

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة النساء:الآية ٧٦] .

قال أبو حيان: "إن المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله، وإن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، ليبين للمؤمنين فرق ما بينهم وبين الكفار ويقويهم بذلك ويشجعهم ويحرضهم، وإن من قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب لأن الله هو وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب"(١).

وقد حرص النبي ﷺ على تربية المجاهدين على إخلاص النية لله تعالى، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"(٢).

---

(١) محمد بن يوسف أبو حيان، البحر المحيط، ج٣، ص٧١٢، مصدر سابق؟؟

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (١٩٠٤)، ص٧٥٩.

المبحث الثالث

النصر ثمرة الجهاد

المبحث الثالث: النصر ثمرة الجهاد

عاشت الأمة المسلمة عصوراً بنت فيها حضارة تفيأت خلالها ظلال الخير والأمن، فسادت الأمم كلها، وما كان لها ذلك إلا بالجهاد ورفع راية الحق، أما في هذا العصر فقد فرقتها الهزيمة مما جعل عدوها لا يقيم لها أدنى شأن، ولا خلاص لها من هذا الحال إلا بالعودة إلى الله تائبة مجاهدة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد:الآية ١١] ، والآية هذه تمثل قانوناً وسنة إلهية تجري على الجميع، فلا يحابي الله تعالى الأمة المسلمة على غيرها، فهي إن أرادت العزة والمنعة في الدنيا والآخرة لابد وأن تغير ما بنفسها من سوء حتى ينصرها الله تعالى، ولن تدب فيها حياة النصر إلا بالجهاد، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الروم:الآية ٤٧] ، "فهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد"(١).

إن نصر المؤمنين أمر حتمي الوقوع بدليل النصوص القرآنية المتتابعة في ذلك، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة المائدة:الآية ٥٦] ، "فمن يناصر دين الله بالإيمان به والتوكل عليه ويؤازر الله ورسوله والمؤمنين دون أعدائهم فإنه لهو القائد الناجي وهو الذي يحقق النصر والغلبة وعندها يتحقق نصر حزب الله وغلبتهم – أي جماعة المؤمنين – ويكون المؤمنون هم الغالبون"(٢).

وقال تعالى في بيان سنة النصر وهو أصدق القائلين: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة غافر:الآية ٥١] ، قال ابن كثير: "هذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم"(٣).

(١) القنوجي، فتح البيان، ج٥، ص٢٨٣، مصدر سابق.
(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج٦، ص٢٣٤، مرجع سابق.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص١٥٠، مصدر سابق.

ورغم ما تواجه الأمة المسلمة من ضنك وضيق في هذا العصر إلا أن عاقبتها لابد وأن تؤول إلى النصر، فيجب أن تؤمن أن النصر لها ولا يداخلها شك في ذلك أبداً، ولكن لهذا النصر طريق يجب أن تسلكه، وأسباب يجب أن تحققها، قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ [سورة محمد:الآية ٧] ، "إن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ونصره رسله واتباعهم، ونصره دينه وجهاد أعدائه وقهرهم حتى تكون كلمته جل وعلا هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى"[١].

"فنصرة دين الله تتحقق بأن يسلّم المسلم نفسه بالكلية لله رب العالمين، فلا يبقى فيه شيء خارجاً عن الاستسلام المطلق والانقياد التام لله رب العالمين، ويظهر هذا الخضوع والاستسلام بالاستسلام الكامل لشرع الله تعالى، وهذا في نفسه وما ينطوي عليه قلبه وتقوم به جوارحه ثم تظهر النصرة لدين الله بجهاد المسلم الدائم لإقامة شرع الله في الأرض بحيث يكون هذا الشرع هو المهيمن والحاكم لجميع العلاقات بين الناس فلا يتحاكمون إلا إليه، ولا يقبلون إلا إياه"[٢].

قال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ۝٢١٤ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢١٤] . فلابد من التضحيات حتى يتحقق النصر، وما الابتلاء الذي تمر به الأمة إلا تكليف من تكاليف النصر وتضحياته.

"وتلك سنة الله في الدعوات، لابد من الشدائد، ولابد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا تبقى طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس ليجيء النصر من عند الله، ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً، ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً فإنما هي قواعد للحياة البشرية، ومناهج ينبغي صيانتها

---

(١) محمد الشنقيطي، أضواء البيان، ج٥، ص٧٢.
(٢) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص٦٠، مرجع سابق.

وحراستها من الأدعياء، والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة لذلك يشفقون أن يدَّعوهـــا، فــإذا ادعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين لهم الحق من الباطل على محك الشـــدائد التـــي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله"[١].

وقد أشار القرآن إلى ضرورة الإعداد للقيام بالجهاد بالشكل السليم الـــذي يـــؤدي إلـــى النصـــر، قـــال تعـــالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ســـــــورة الأنفال:الآية ٦٠] .

إن الإعداد للجهاد في سبيل الله مرحلة مهمة في حياة الأمة لأن رفع راية الحق لابد وأن تكون لها قوة تحميها وتنافح عنها، فإن غابت تلك القوة المأمور بإعدادها فلن تكون هناك سـيادة لدين الله في الأرض، تلك السيادة التي عبر عنها ربعي بن عامر بقوله: "ابتعثنا الله لنخرج مـــن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عـــدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَـــن أبـــى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعد الله، ولما سأله رستم ملك الفرس – وما موعد الله؟ قال: الجنـة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي"[٢].

إن سيادة الأمة المسلمة لن تكون إلا بالجهاد الذي أوجب الله سبحانه الإعداد له بجميـــع أنواع القوة المتاحة، وقد فسر النبي ﷺ لفظ القوة الوارد في الآية فقال: "ألا إن القوة الـــرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي"[٣].

وفي عصرنا نرى مدى أهمية اعتماد دقـــة الرمـــي فـــي الحـــروب وصنـــع الأدوات والوسائل المختلفة لتحقيقه.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٠٣٦، مرجع سابق.
(٢) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، ج٧، ص٣٩.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم(٢٨١٣)، ج٢، ص٩٤٠.

"كما يجب على المسلمين في هذا العصر صنع ما تحتاج إليه الجيوش من الآلات والمدافع والبنادق والدبابات والطيارات والمناطيد وإنشاء السفن الحربية بأنواعها، ويجب عليهم تعلم الفنون وجميع الصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من آلات الحرب بدليل – مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب – ولئلا يكون المسلمين تحت رحمة من يصنع الذخائر والمعدات الحربية إن شاء منحهم وأعطاهم وإن شاء منعها عنهم وحرمهم منها فلا يعطيهم ما يحتاجونه ولو بالثمن"(١).

وإعداد مثل هذه القوة يحتاج إلى أموال طائلة، فالمال عنصر أساسي من العناصر الحيوية، التي يعتمد عليها الجهاد، بل يستحيل وجود قوة للأمة المسلمة دونما مال، لذلك دعا القرآن إلى الجهاد في سبيل الله وبذله رخيصا.

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [سورة البقرة:الآية ٢٦١] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الحجرات:الآية ١٥] .

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآية ٢٠] .

"إن الإنفاق في سبيل الله ركن أساسي من أسس الدين ودعامة من دعائم الدولة، فما بخلت أمة بمالها إلا حاق بها الذل والاستعباد، وسلط الله عليها الأعداء من كل جانب يتكاثرون فيها كما تتكاثر الأكلة الجياع على المائدة"(٢).

---

(١) عبد الله غوشة، الجهاد طريق النصر، وزارة الأوقاف، الأردن، ص١٢٨.
(٢) محمد حجازي، التفسير الواضح، ج١، ص١٨، مرجع سابق.

ومن خلال النصوص القرآنية السابقة نلاحظ الاقتران بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس، وتقديم جهاد المال على جهاد النفس، لأن الجهاد بالنفس يتبع جهاد المال الذي يسبقه، فالمال ضروري للإنفاق على المجاهدين وتجهيزهم والإنفاق على أسرهم، "فالنفقة في الجهاد فيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين وتوهين الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الانفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء وشدة تكالبهم"(١).

والامتناع عن الإنفاق في سبيل الله يجعل الإنسان يتصف بصفات المنافقين. قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة التوبة:الآيتان ٤٤-٤٥] .

أما الجهاد بالنفس فيعد من أعلى مراتب الجهاد وبه تكون الانتصارات، لذا يجب أن تعد الجيوش في الأمة إعداداً قوياً، فالعنصر البشري يبقى هو الأساس في الجهاد رغم ما استحدث من أسلحة متطورة ذات كفاءة عالية، فلابد من الإعداد البدني والفكري للجنود، وكان النبي ﷺ "يحرص على انتقاء المجاهدين من أصحاب البنية القوية، فصحة الإنسان وسلامة جسمه ونفسيته وعقليته وشعوره وسلامته من الأمراض كل هذا يعتبر من شروط وأساس دخول المجاهد سلك الجهاد، وكذلك يحسن أن يكون جهاده حسب قدرته ومعرفته وحسب إمكانه ورغبته"(٢). لذا لابد من الاهتمام بالعنصر البشري في الجهاد، أما الذين يحسبون أن النصر في هذا العصر للآلة فقط فهم مخطئون.

---

(١) عبد الرحمن السعدي، تفسير كلام المنان، تحقيق محمد زهري النجار، عالم، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م، ج١، ص١٧٣.
(٢) صالح اللحيدان، الجهاد في الإسلام، دار الصميعي، ص٨٩ (باختصار).

وينبغي عدم إغفال الإعداد المعنوي لدى الفرد المسلم أثناء الجهاد، وأهمها اتقاء النزاع والحرص على الوحدة باعتبار أنها تشكل قوة حقيقية للأمة، وأمتنا اليوم أضحت بأمس الحاجة لتحقيق الوحدة والقضاء على الخلاف والتنازع الذي ساهم في هزيمتها وضعف نور حضارتها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤ ﴾ [سورة الصف:الآية ٤] .

ومن الإعداد توجيه المجاهدين على حسن التوكل على الله تعالى، فالتوكل يشكل قوة معنوية تكون دافعة للمجاهد أن يدافع عن أمته وأن يحمي بلاده ومقدساته، قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٦٠ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٦٠] .

وكذلك القدرة على الصبر والثبات وعدم اليأس، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ٢٠٠] ، فلابد من التحلي بالصبر، لأنه ما تشتد الحاجة إليه في ميادين الجهاد، فالصبر يمثل ثمرة لإيمان المجاهد وثقته بربه، وهو خير زاد يتزود به.

كما ينبغي أن تستغل الأمة كل قدراتها وثرواتها من أجل الإعداد للجهاد ومن ثم الإعداد للنصر، ولا تأبه بما يرميها به عدوها من تخلف عن ركب الحضارة وضعف بل تعلمهم أن الهزيمة لا يمكن أن تولد معها ولا يمكن أن تورثها لأجيالها القادمة، بل هي حالة مكتسبة استثنائية تصيبها لأمرين، **الأمر الأول:** بسبب التنكب والتنكر عن منهج الله تعالى وترك الجهاد، وعلاج هذا ممكن وغير مستعص، وذلك بإحياء روح الجهاد في الأمة وإعلاء كلمة الله تعالى في أرجائها، عندئذ ستتلاشى الهزيمة شيئاً فشيئاً إلى أن تموت.

أما الأمر الثاني: كونها نتيجة لسنة الله في مداولة الأيام بين الناس، فقد تكـــون الأمـــة المؤمنة صالحة ورغم ذلك تلحقها الهزائم، فيكون هذا من قبيل معاقبة الله تعالى النصر والهزيمة على الأمة، فلا نصر يدوم، ولا هزيمة تدوم، وإنما الأيام بينهما مداولة لحكم يريدها المولى عـز وجل، كتمحيص الصف المؤمن وتخليص النفوس من الخبث الذي يلحقها أحياناً، قال تعـــالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [سورة آل عمران:الآيتان ١٤٠-١٤١] . قال الآلوسي: "إن الله تعالى لا ينصر الكافر على الحقيقة، وإنما يغلبه أحياناً استدراجاً له، وابتلاء للمؤمن، وأيضاً لو كانت النصرة للمؤمنين لكان الناس يدخلون فـــي الإيمان على سبيل اليُمن الفأل والمقصود غير ذلك"(١).

"إن مداولة الأيام سنة من سنن الله في المجتمع البشري، فمرة تكون الدولـــة للمبطـــل، وأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائماً لمن اتبع الحق. وإنما تكون الدولة دائماً لمن عرف أســـباب النجاح ورعاها حق رعايتها كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة، وأخـذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة"(٢).

وعلينا أن نقوم بهذه الأعمال حتى ننتصر على أعدائنا أعداء الدين مع الحـــرص علـــى عدم جعل الفشل مضعفاً للعزائم لأن الأيام دول، فقد تعيش الأمة حالة صعبة يطول فيها الجـــهاد ويتأخر فيها النصر، عندئذ يجب أن يؤمن بقوله تعـالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [سورة الصافات:الآية ١٧٣] ، فنتابع الطريق صابرة مصابرة فقد يتأخر عنها النصر لحكم يريدها الله تعالى، ولكنه آت. ومن هذه الحكم.

- " يتأخر النصر كي تبذل الأمة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تمتلكه من رصيـــد، لا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبذله هينا رخيصاً في سبيل الله.

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، ج٤، ص٣٨٧، مصدر سابق.
(٢) المراغي، تفسير المراغي، ج٢، ص٦٦، مرجع سابق.

- ولكي تجرب الأمة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من عند الله لا تكفل النصر، إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

- وحتى تزيد الأمة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا متوجهاً إلا إليه وحده في السراء والضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على المنهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

- ولأن الأمة لم تجرد بعد من كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله.

- ولأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى ينكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه"(١).

والأمة المسلمة اليوم مدعوة بدعوة القرآن لإزاحة ستار الضعف والهوان عن ناظريها من خلال الجهاد في سبيل الله، فبه تستعيد عزتها وكرامتها وتدفع عن أبنائها الذل والخنوع والفساد الذي يملأ حياتهم.

"والتغيير الذي تنشده الأمة الإسلامية لا يمكن تحقيقه من غير الجهاد، وبدون صياغة جيل مجاهد، فالمهمة التغييرية مهمة شاقة، فالقوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في عالمنا قوى شريرة، وإقامة الإسلام مكانها ليس بالأمر السهل فذلك يحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى تربية جهادية تخرج أنماطاً من المجاهدين، يحبون الموت كما يحب الناس الحياة ويعيشون هَم الاسلام وقضاياه ليلهم ونهارهم"(٢).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٤٢٦، مرجع سابق.
(٢) محمد السيد محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية، ط١، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٩٣.

الخاتمة

تم بعون الله هذا البحث المتواضع حول الآيات القرآنية الواردة في هلاك الأمم وقد كشف عن نتائج مهمة أجملها بما يأتي:

- سنة هلاك الأمم سنة إلهية ثابتة، تسري على الجماعات البشرية في كل زمان ومكان، وهي سنة لها أسبابها وعللها متى وجدت تلك الأسباب والعلل وقع الهلاك لا محالة.
- لابد من الحرص على القضاء على الجهل في مجالات الحياة لأنه يمثل ركناً أساسياً في هلاك الأمم، وقد ركز القرآن الكريم عليه وذكر أُمما عدة سابقة هلكت بسببه، فكل أمة تحيا حياة الجهل فهي في منأى عن الأمن والحضارات الزاهرة.
- يُعد الترف آفة تهدد الأمم الإنسانية، ومصدراً لكل المفاسد في حياة الفرد والمجتمع، ومالم تستأصل هذه الآفة لا يتسنى للخير أن يسود ولا يتحقق المجتمع الإنساني المنشود، فالقرآن الكريم يعتبر الترف شراً خطره كبير لكونه يحصر اهتمامات الأمة في المظاهر المادية، لذا يُعد ترفها نذيراً بإهلاك الله إياها.
- بيّن القرآن الكريم خطورة الظلم كونه سبباً أساسياً مؤدياً إلى هلاك الأمم، فهو مرض اجتماعي يصيب الأمم في مقتل، لذا ما ساد الظلم في أمة إلا تعست وعاشت شقاء وضيقاً وفقدت أمنها ورقيها وانهارت حضارتها القوية.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من لوازم حياة البشر وضروراتها، وقد اهتم به القرآن الكريم، وكذلك السنة النبوية لما يحويه من خير يعم حياة الأمة كلها، فتحفظ بذلك نفسها من الانحلال والتردي والسقوط وبالتالي تأمن من حلول الهلاك بها.

- يعتبر الجهاد في سبيل الله من أهم أسباب صلاح الأمة وبقائها عزيزة قوية رافعة راية الحق في الحياة، لذا شرعه الله تعالى لدحض الباطل والقضاء عليه، ومتى أهملته الأمة ونحته عن حياتها حلّ بها الهلاك.

- على الأمة المسلمة في هذا العصر إن أرادت مداواة جروحها والخروج من هوانها وهزيمتها أن تُحيي ركن الجهاد في حياتها تائبة منيبة إلى ربها.

والحمد لله في بدءٍ ومختتمِ

تحليل المصادر والمراجع

- <u>المصادر</u>

١- جامع البيان في تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ).

يعُد تفسير الجامع لابن جرير من أجلّ كتب التفسير بالمأثور، كما يعتبر مرجع المفسرين بحق، فكل من جاء بعده اعتمد عليه؛ وقد اتبع الطبري في تفسيره منهجاً متميزاً، حيث أعتنى بنقل كافة الروايات الواردة في تفسير الآيات على اختلافها وتنوعها، ويذكر ما يراه راجحاً، كما اهتم بذكر أسباب النزول والنواحي اللغوية والقراءات.

٢- الكشاف للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ).

يعُد حجة في علوم الدين واللغة، وهو معتزلي العقيدة، ويعد الكشاف من أمهات كتب التفسير القائم على الأساس اللغوي والبياني، وقد صار الكشاف مستقى لمن أراد التأليف في التفسير.

٣- مفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٤هـ).

ويعد من أمهات التفسير الجامع للتفسير بالمنقول والمعقول مع توسعه في المعقول، فقد امتاز الرازي بسعة أبحاثه فاهتمّ ببيان المناسبات بين الآيات والسور، وكان كثيراً ما يستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية، ولم يغفل الجانب الفقهي واللغوي في كتابه.

٤- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ).

من التفاسير الفقهية المهمة وأكثرها اهتماماً بالنواحي الفقهية، وكان منهجه يتبين في ذكر أسباب النزول وتعرضه للقراءات والوجوه الإعرابية، وأثناء تفسيره للآيات كان يستخدم أسلوب

تقسيم الآية إلى مسائل ثم يبدأ بتفسيرها مسألة مسألة، ويذكر مذاهب الأئمة ويناقشها ولا يتعصب لمذهبه المالكي.

٥- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصري الدمشقي (ت٧٧٤هـ).

من أشهر كتب التفسير بالمأثور، ويأتي في المرتبة الثانية بعد تفسير الطبري، ومنهجه يقوم على تفسير الآية بالآية ثم يسرد الأحاديث التي تتعلق بتفسير الآية. ولم يغفل المناقشات الفقهية في آيات الأحكام، وكان يرجح بعض الأقوال على بعض، وقد حذر من الإسرائيليات تارة على وجه الإجمال وتارة على وجه التعيين.

٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٠٠هـ).

وهو من الكتب التي جمعت بين التفسير بالدراية والرواية، وكانت طريقته في التفسير تقوم على ذكر الآيات ثم تفسيرها تفسيراً معقولاً، وقد اعتمد على غيره من المفسرين كابن عطية والطبري، كما اهتم بذكر القراءات المتعددة وقرائها، ويعد هذا الكتاب أصلاً من أصول التفسير.

٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الآلوسي (ت١٢٧٠هـ).

من التفاسير الإشارية التي عُني فيها مؤلفه بمسائل الصوفية والإشارات، وكان يذكر أقوال الفقهاء ويرد آراء الشيعة والمعتزلة، كان شديد النقد للإسرائيليات والأخبار المكذوبة كما أنه يتعرض للقراءات في تفسيره ويستفيد ممن سبقه من المفسرين ويذكر خلاصة أقوالهم.

- <u>المراجع:</u>

١- تفسير القرآن الحكيم المشهور (بتفسير المنار) لمحمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ).

يعد من أهم التفاسير في العصر الحديث لأنه يجمع بين التفسير بالمأثور والمعقول، ولم يتقيّد بأقوال المفسرين، وكان متحرزاً من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة، كما أنه يعالج بعض القضايا المعاصرة والأمور المطروحة في المجتمع الحديث.

٢- تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي (ت١٣٧٢هـ).

من أهم التفاسير في العصر الحديث حيث كان منهجه يقوم على شرح الألفاظ المفردة التي يصعب على القارئ فهمها لأول وهلة، ثم تلاها بالمعنى الجملي للآية بعبارة مختصرة، ثم أتبعها بإيضاح المراد من الآية إيضاحاً شافياً كافياً، مع تجنب القصص الإسرائيلية، كما استدل بأشعار العرب وبأقوال أئمة اللغة الموثوق بهم.

٣- في ظلال القرآن لسيد قطب (ت١٣٨٦هـ).

من كتب التفسير التي أبدع فيه مؤلفه فهو لم يجمع التفسير جمعاً إنما هو إبداع جديد في مجال التفسير، وقد بيّن فيه المؤلف وجوب تطبيق المبادئ القرآنية في الحياة الإنسانية فهو يخاطب المجتمع الإنساني في تفسيره وكان منهجه يتمثل في التعريف بالسورة ثم تقسيمها إلى جولات ومقاطع ثم يقسمها إلى دروس على أسس موضوعية ومنهجية ثم يسجل العبر والعظات التي تظهر في الدرس.

٤- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ).

جمع هذا الكتاب بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، كما جمع فيه أقوال المفسرين السابقين ورجح بينها، وقد اعتنى ببيان وجوه الإعجاز واستعمال الألفاظ العربية، ويعتبر تفسيره شاملاً إذ كان يبين الترابط بين السور والآيات وأسماء السور وسبب تسميتها ثم يذكر الفوائد البلاغية واللغوية في الآيات.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- إبراهيم بن السري الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه** (ت٣١١هـ، ٩٢٣م)، تحقيق عبد الجليل شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.
- أحمد بن شعيب النسائي، **سنن النسائي** (ت٣٠٣هـ، ٩١٥م)، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** (ت٧٢٨هـ، ١٣٢٧م)، مكتبة المدني، جدة.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **الحسنة والسيئة** (ت٧٢٨هـ، ١٣٢٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **ثلاث رسائل في الجهاد** (ت٧٢٨هـ، ١٣٢٧م)، تحقيق محمد أبو صعيليك وإبراهيم العلي، دار النفائس، عمان، ١٩٩٣م.
- أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة** (ت٣٩٥هـ، ١٠٠٤م)، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
- أحمد بن محمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد** (ت٨٥٢هـ، ١٤٤٨م). تحقيق أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة.
- أحمد بن يوسف السمين الحلبي، **عمدة الحفاظ** (ت٧٥٦هـ، ١٣٥٥م)، تحقيق محمد التنوجي، ط١، عالم الكتب، ١٩٩٣م.
- إسماعيل بن عمرو بن كثير، **البداية والنهاية** (ت٧٧٤هـ، ١٣٧٢م)، دار الفكر.

- إسماعيل بن عمرو بن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (٧٧٤هـ، ١٣٧٢م)، دار طيبة، بيروت.
- إسماعيل حقي البروسي، **تفسير روح البيان** (ت١١٣٧هـ، ١٧٢٤م)، تحقيق أحمد عبيدو، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الحسين بن محمد الدامغاني، **إصلاح الوجوه والنظائر** (ت٤٧٨هـ، ١٠٨٥م)، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م.
- الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **مفردات القرآن الكريم** (ت٤٢٥هـ، ١٠٣٣م)، دار الفكر، بيروت.
- الحسين بن محمد القمي النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** (ت٢٨٩هـ، ٩٠٢م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.
- سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الكبير** (ت٣٦٠هـ، ٩٧٢م)، تحقيق حمدي عبد المجيد، دار العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣م.
- سليمان بن أشعث بن داوود، **سنن أبي داوود** (ت٢٧٥هـ، ٨٨٨م)، ط١، دار السلام، الرياض، ١٩٩٩م.
- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، **روح المعاني** (ت١٢٧٠هـ، ١٨٥٤م)، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.
- صديق حسن القنوجي، **فتح البيان** (ت١٣٠٧هـ، ١٨٨٩م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
- عبد الحق بن عطيه الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** (ت٥٤٦هـ، ١١٥١م)، تحقيق الرحالي الفاروق وآخرون، ط١، الدوحة، ١٩٧٧م.

- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (٨٠٨هـ، ١٤٠٥م)، تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي.
- عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي (ت٧١٠هـ، ١٣١٠م)، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٨٩م.
- الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، مجمع البيان (ت٥٦١هـ، ١١٦٥م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (ت٧٥٨هـ، ١٣٥٠م)، تحقيق محمد بلتاجي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تفسير ابن جزي (٧٤١هـ، ١٣٤٠م)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ت٦٠٧هـ، ١٢١٠م)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٩م.
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (ت٢٥٦هـ، ٨٧٠م)، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض،١٩٩٨م.
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (ت٣١٠هـ، ٩٢٢م)، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير (ت١٢٥٠هـ، ١٨٣٤م)، تحقيق عبد الرحمن عمرو، ط٢، دار الوفا، المنصورة، ١٩٩٧م.
- محمد بن عمر الفخر الرازي، التفسير الكبير (ت٦٠٦هـ، ١٢٠٩م)، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- محمد بن عيسى الترمذي، **جامع الترمذي** (ت٢٧٩هـ، ٨٩٢م)، تحقيق صالح عبد العزيز، ط١، دار السلام، الرياض.
- محمد بن محمد أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** (ت٩٨٢هـ، ١٥٧٥م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب** (ت٧١١هـ، ١٣١١م)، دار صادر، بيروت.
- محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجه** (ت٢٧٥هـ، ٨٨٦م)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **بصائر ذوي التمييز** (ت٨٢٣هـ، ١٤٢٠م)، تحقيق محمد النجار، مجلس إحياء التراث العربي، القاهرة.
- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط** (ت٨٢٣هـ، ١٤٢٠م)، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط** (ت٧٥٤هـ، ١٣٥٣م)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
- محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين** (ت٨٠٦هـ، ١٤٠٣م)، ط١، دار الفكر، عمان، ١٩٨٦م.
- محمد مرتضى الزبيدي، **تاج العروس** (ت١٢٠٥هـ، ١٧٩٠م)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
- محمود بن عمر الزمخشري، **أساس البلاغة** (ت٥٣٨هـ، ١١٣٣م)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

- محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف** (ت٥٣٨هـ، ١١٣٣م)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

- محيي الدين محمد بن مصلح الشيخ زاده، **حاشية الشيخ زاده** (ت٩٥١هـ، ١٥٤٤م)، تحقيق محمّد عبد القادر شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

- مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم** (ت٢٦١هـ، ٨٧٤م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

- نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، **بحر العلوم** (ت٣٧٥هـ، ٩٨٥م)، تحقيق علي محمد وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.

المراجـــــــــع

- أبو الأعلى المودودي، **مبادئ الإسلام**، ط١، مكتبة الشباب المسلم، ١٩٥٧م.
- أبو سريع محمد عبد الهادي، **الربا والقرض في الفقه الإسلامي**، دار الاعتصام.
- أحمد إسماعيل نوفل، **الحرب النفسية من منظور إسلامي**، ط٢، دار الفرقـــان، عمـــان، ١٩٨٧م.
- أحمد حسن فرحات، **الأمة ودلالتـــها العربيـــة والقرآنيـــة**، ط١، دار عمـــار، الأردن، ١٩٨٣م.
- أحمد مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- بدرية سعود محمد البشر، **فقه إنكار المنكر**، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠١م.
- سيد قطب، **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط١، دار الشروق، ١٩٨٠م.
- شوقي عبد الساهي، **المال وطرق استثماره في الإسلام**، دار الفتح للإعلام العربي.
- صالح اللحيدان، **الجهاد في الإسلام**، دار الصميعي.
- صلاح الخالدي، **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**، ط١، دار النفائس، الأردن، ١٩٩٧م.
- طنطاوي جوهري، **نهضة الأمة وحياتها**، مطبعة اللواء، القاهرة.
- عادل السكري، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، ط١، الزهراء للإعـــلام العربـــي، ١٩٩٣م.
- عارف أبو عيد ورفاقه، **النظم الإسلامية**، ط١، وزارة التربية والتعليم.
- عبد الله سليمان المشوخي، **مجتمعنا المعاصر**، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧م.
- عبد الله غوشه، **الجهاد طريق النصر**، وزارة الأوقاف، الأردن.
- عبد الرحمن حسن حبنكه، **أسس الحضارة الإسلاميه ووسائلها**، ط٢، دار القلم، دمشـــق،، ١٩٨٠م.
- عبدالرحمن السعدي، **تفسير كلام المنان**، تحقيق محمد زهدي النجار، ط٢، عالم الكتب، بيروت،١٩٩٣م.

- عبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، دار الفكر العربي.
- عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية**، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م.
- عفيف عبد الفتاح طبارة، **الخطايا في نظر الإسلام**، ط١، ١٩٧٦م.
- عفيف عبد الفتاح طبارة، **اليهود في القرآن**، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.
- علي الطنطاوي، **تعريف عام بدين الإسلام**، ط٣، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٥م.
- عماد الدين خليل، **حول أعادة تشكيل العقل المسلم**، كتاب الأمة، قطر.
- عماد الدين خليل، **في العدل الاجتماعي**، مطبعة الحوادث، بغداد، ١٩٧٩م.
- عودة خليل أبو عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن**، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥م.
- فضل حسن عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م.
- ماجد عرسان الكيلاني، **الأمة المسلمة**، ١٩٩٢م.
- محمد أبو فارس، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، ط٤، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م.
- محمد أبو فارس، **شغب اليهود على الأنبياء**، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٨م.
- محمد أبو فارس، **النظام السياسي في الإسلام**، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٦م.
- محمد اسماعيل ابراهيم، **معجم الألفاظ والأعلام القرانية**، دار الفكر العربي.
- محمد أمين الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، طبع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣م.
- محمد جمعة عبد الله، **وسائل النصر**، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.
- محمد حجازي، **التفسير الواضح**، ط١٠، دار التفسير للطباعة والنشر، الزقازيق، ١٩٩٢م.
- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

- محمد سالم محيسن، في رحاب الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية، ١٩٨٥م.
- محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣م.
- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر.
- محمد السيد يوسف، التمكين للأمة الأسلامية، ط١، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القران الكريم، ط٣،منشورات العصر الحديث، ١٩٧١م.
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٤م.
- محمد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية، دار القلم، ١٩٧٣م.
- محمد عبد الرحمن السيد عوض، الفرعونية كما يصورها القرآن، مكتبة السلام العالمية.
- محمد عبد الرحيم عدس، من خصائص النفس البشرية في القرآن، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥م.
- محمد علي مسعود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس.
- محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط٧، دار الصحوة، ١٩٨٧م.
- محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ط١، مكتبة وهبة، ١٩٦٤م.
- محمد مهدي شمس الدين، بين الجاهلية والإسلام، ط٤، المؤسسة الدولية للدراسات، ١٩٩٥م.
- مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩م.
- وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م.
- يحيى الشامي، الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، ط١، دار الفكر اللبناني.

الرسائل العلمية:

محمد الوحيدي، الأمة المسلمة في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت، المفرق، ٢٠٠٠م.

مهدية الزميلي، منهج الإسلام في مكافحة الجريمة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٧م.

فيروز الشيشاني، دراسة تحليلية وموضوعية لسورة الإسراء، رسالة ماجستير غير منشــورة، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٦م.

نايل أبو زيد، الأمن الاجتماعي من منظور القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، كليــة الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩١م.

The Quranic Verses Peritaining
To The Destruction of Nations

Prepared by Student: Omar Salameh Al Bursan

- Abstract -

This dissertation is about the Quranic Verses that have been illuminated for the world in regard of the nations destruction along with causes and factors. This study belongs to the subjective explanation category of the Quran Al Kareem. This category or circle is very vast and contains several of the Quranic topics. The Quran Al Kareem has mentioned destruction news of many nations in the past. Those nations had faced destruction by many kinds of sufferings and torture.

Some of news about those nations were mentioned with big details while the news about some others were brief. This way of mentioning the destruction news has been aimed serve as a testimony and the idea behind it which the Quran Al Kareem wants to emphasize it to the people.

We see the Al-Quran the Al-Kareem mentions with details the destruction of NOAH's(P) people in different places in different verses, while the Quran Al Kareem didn't mention with details the destruction of Tubba' people, and Ashab Alrash, instead the Quran Al Kareem mentioned that they were counted with other distructed nations.

We find in the Quran Al Kareem vast areas that tells about nations whom faced destruction, this due to Godly doctorine (sunnet). And God's "Allah" sunnet is everlasting steady, does not change nor subject for substitution.

And all nations are standing underneath the umbrella of Allah's sunnet. And any nation whom destruction causes are found in its midst, inevitably, will face destruction while Almighty Allah - praises be to Him - does not prefer nation over another.

Destruction causes and factors which the Quran Al Kareem has submitted are too many but the most important ones are:

- Ignorance which considered to be the main factor for not believing in the oneness of Allah; along with other sins. For that reason the Quran Al Kareem has paid a special attention to this aspect due to its major role in the loss, disperssion and destruction of nations. No nation or people lived in ignorance darkness stayed without the loss of its sight and vision which lighten its life.

The life style of lust, desires and show off prosperity - this considered to be a social illness, destructive of civilizations and nations of people who live in this state of lust exceeding the limits of the acceptable norms of the enjoyment of life's blessings and goodness which almighty God has

mentioned as the ornament of earthly life. This kind of people drag others to destruction.

- Injustices, and oppressions - this also was a cause for many nations to face destruction, Oppression and injustices if plagued any nation this nation will live in a great misery and difficulties even if it was of vas greatress, this nation, as long as practicing injustices it will face destruction sooner or later.

The magnitude of injustice is very wide, it contains too many sins and evil doings. God hated this too much.

- The abandon ment of the call to do good deeds and warn others from doing the unacceptable.

To abardomment of God's call for people to do good and reject evil causes destruction to people as Bani (people) Israel. This bad and evil doing was individualized in them; each individual was doing this sin, however when all people start practicing it, God's destruction will fell upon them.

- The abandonment of Al Jihad on behalf of God. Allah (blessed be His Name) has called his people not be passive; they have to flight for the sake of Allah. Abandonment of Allah's commandment will lead to destruction, staying passive will cause nations to lose its spirit this will

lead the prodigal nation be swept in evils doings and be defeated and destroyed. This has been a warning which was mentioned in many places in the Quran Al Kareem.

Quran Al Kareem has been in constant warning to the people to stay away from evil doing and be away from destruction. And to be sure to abide by God's commandments. Faith in Allah is the main factor in people's strength; it is their first and last reference. This explains why the Quran Al Kareem is linked with faith and good deed. So, nations must be formed in a way that will be in accordance with the believing in Almighty Allah.